الى استاذنا الكبير محمود تيمور
تحية خالصة لشخصه المحبوب
انور الجندي
٥٤/٤/١٥

أعلام الإسلام

أنور الجندي

١٩٥٤

شركة سلمجة للطباعة والنشر
٢١ شارع عماد الدين

كتب للمؤلف

أخرجوا من بلادنا	صدر عام	١٩٤٦
مناورات السياسة	»	١٩٤٧
بين لاظوغلى وقصر الدوبارة	»	١٩٤٨
تاريخ الأحزاب السياسية	»	١٩٤٧
النيل لا يتجزأ	»	١٩٤٧
قضايا الأقطار الاسلامية	»	١٩٤٦
الاخوان المسلمون فى ميزان الحق	»	١٩٤٦
مع بعثة الحج	»	١٩٤٦
حسن البنا : رجل ومدرسة	»	١٩٤٦
انهيار الحضارة الغربية	»	١٩٤٦
الإسلام يزحف إلى قواعده	»	١٩٤٦
عرائس البكارى	»	١٩٣٨
الانسانية فى الميزان	»	١٩٤٣
فضائح الأحزاب السياسية	»	١٩٥٢
فطارد (جزءان)	»	١٩٥٣
الامام المراغى	»	مجموعة اقرأ ١٩٥٢
شمائل الرسول (٤ أجزاء)	»	١٩٤٨
مذكرات مسلم	»	١٩٤٨
الصراع بين الاسلام والاستعمار	»	١٩٤٨

الغلاف بريشة الفنان : عبد السلام الشريف

الخطوط بقلم الاستاذ محمود إبراهيم

عمـــر

تبدو شخصية (عمر) على أوضح صورها فى ذلك المنظر الفريد ، منظره وقد تقلد سيفه وذهب يسأل عن محمد وقد عزم على أن يقتله بعد أن اقتنع بأنه فرق القبائل وفتن الناس . ثم ينحرف به الطريق إلى منزل أخته فاطمة فيسمع آيات القرآن . فيزداد امعانا فى الذهاب إلى محمد ولكن على غير النية الأولى بل على عكس الغرض وضده . ليس قتل محمد ولكن الإيمان بدعوته والدفاع عنه وعن عقيدته .

هذه هى الحلقة المفردة فى تاريخه ، الشخصية القوية المدله بقوتها حين تنتقل من صف إلى صف وهى تحمل نفس الإيمان المكين وتندفع فى الطريق الى كل مكان جلست فيه بالشرك لتجلس فيه بالاسلام .

وهو هو الإنسان الممتاز طوال حياته ، صاحب الشخصية الواضحة القوية التى كانت تقول رأيها فى وضوح ولا تبالى أن تختلف فيه مع الرسول نفسه وقدكان عمر مهيباحتى كان الرسول يهابه،عندما وقع الرسول عقدالحديبية وقفل عائداً مضى عمرحتى حاذاه واخذ يراجعه ويقول له يا رسول الله أنعطى الدين عن ديننا . ولم يسترح حتى قال له إننى رسول الله وان يضيعنى الله أبداً .

وأشار على الرسول أن يحجب نسائه . ووقف بين الرسول وبين الصلاة على عبد الله ابن أبى ، كبير المنافقين حتى رده الرسول قائلا أخر عنى يا عمر .

وهو الذى لم يغنه فى الخمر البيان الأول وطفق يسأل حتى نزل فيها بيانا شافيا ، وعندما جاءت الرسول غمرة الموت ودعا بطرس يملى على المسلمين كتابا قال : إن النبى غلبه الوجع وعندنا كتاب الله .

وأشار بقتل الاسرى فى بدر وخالفه الرسول وأبو بكر ونزل القرآن برأيه .

وهكذا كان واضح الشخصية فى حياة الرسول يشير عليه ويراجعه ويعلل رأيه ولا يرجع حتى يقتنع . وقال الرسول عنه « ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه »

وكان إلى هذا جرىء الرأى فيه عاطفة حادة لايحب الوسط من الأمور . عندما رأى أباسفيان ليلة فتح مكة دخل على الرسول يطلب اليه أن يأذن له بقتله ، وعندما علم بوفاة الرسول وقف يخطب الناس ويقول لهم من قال ان رسول الله مات فستقطع عنقه .

وظل كذلك فى كل عهد وكان رأيه فى خالد بعد الخلافة هو رأيه فى عهد أبى بكر . وكان لايبالى أى شىء فى سبيل الحق الذى يعتقده ، حتى انه ضرب سعد بن أبى وقاص بالدره عندما رآه يقتحم صفوف المسلمين ليصل اليه ليأخذ عطائه قبل الناس

وظل عمر معروفاً بوضوح الرأى . وقوة العاطفة والطبيعة الزاهدة ، حتى ولى الخلافة فعرف بالعدالة المطلقة التى بلغت غايتها وحدودها . والتى امتدت إلى الناس جميعاً وامتدت إلى أهله قبل الناس، فكان من نصيبهم مضاعفة الجزاء فى العقوبة والدرجات الأخيرة فى العطاء . فلم يول عمر أحداً من أهله عملاً إبان خلافته ، ولكنه عندما أقام الحد على ابنه ، ومات قبل أن يتم أمر أن يستوفى وهو ميت .

وكان مع عدالته البالغة عطوفاً بالفقراء رفيقاً بالناس يكفكف دموعهم ، ويحمل الدقيق فوق كتفه إلى المرأة التى تلد وليس حولها أحد ، وإلى الأطفال الذين لاتجد أمهم ماتطعمهم به .

وعرف بالقوة والصرامة ، جابه المشركين منـــذ اليوم الأول لاسلامه

واشتبك معهم ، وكان اسلامه قوة للمسلمين إذ خرجوا لاول مرة فصلوا عند الكعبة ، وهاجر المسلمون خفية إلا عمر فقد هاجر جهرة وأعلن للناس أن من أراد أن تثكله أمه وولده وترمل زوجته فليلقه خلف الوادى .

يقول يوم ولى الخلافة « بلغنى أن الناس هابوا شدتى وخافوا غلظتى وقالوا قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه فكيف وقد صارت الأمور إليه . . أيها الناس فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين ، فاما أهل السلامه والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض »

وفى معنى القوة فى عمر حديث الرسول « أريت فى المنام أنزع بدلو بكرى على قليب فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين نزعا ضعيفاً . والله يغفر له . ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا ، فلم أر عبقرياً يفرى فريه حتى روى الناس وضربو بعطن » .

وقد تحققت نبوة الرسول فكان عمر كذلك فى حكمه الطويل .

وكان عمر من أهل المكاشفة واستيحاء الغيب وفى هذا قصة ساريه حين قطع خطبة الجمعة ونادى : يا ساريه بن حصن : الجبل الجبل ومن استعدى الذئب ظلم فلما سئل قال : وقع فى خلدى أن المشركين هزموا اخواننا وركبوا أكتافهم وأنهم يمرون بجبل فان عدلوا اليه قاتلوا من وجدوه وظفروا وان جاوزوه هلكوا فقلت هذا الكلام ولما رجع ساريه سئل عن نداء عمر فقال انه سمعه .

وكان أمره مع الولاة عجباً : يحصى ثرواتهم قبل أن يوليهم ثم يحاسبهم كل عام

ويدعوهم أن يحضروا إلى المدينة نهاراً . ويسأل عنهم أهالى أقطارهم فى مواسم الحج ، ويرسل إليهم من يتعرف أعمالهم . ويحرق باب البيت الذى بناه سعد ابن ابى وقاص فى الكوفه ويقول له أن بيت الوالى لا باب له .

وكان قـــد عزم على أن يزور الأقاليم كلها ليتعرف حاجات الناس وأعمال الولاه لولا أن أدركه الموت . وقد حاسب خالد وأبى هريره وعمرو بن العاص واقتسم معهم أموالهم .

وكان يمر على الناس فيتعرف أحوال المسلمين ، ويصل إلى ما لا يصل إليه الحاكم الذى لا يتفقد رعيته . وقصه الطفل الذى فطمته أمه عن الرضاعة لأن عمر لا يكتب إلا للطفل بعد أن يفطم ، وقصة بائعة اللبن التى كانت تخلطه بالماء . لم يتح لعمر أن يعرفهما إلا بسهره على الرعية وعسه بالليل ، والزوجةالتى غاب زوجهافى الحرب ؛ ويذهب بنفسه فيحرس التجار الذين يقدمون بعد العشاء ولا يعهد بهم إلى غيره . ويعالج ابل الصدقة بنفسه ويمر على البيوت فيشترى لأهلها الذين غاب أزواجهم فى الحرب حاجياتهم ويقرأ لهم البريد عندما يرد ويكتب لهم

ومن هذا كله فرض للطفل منذ أن يولد ، وأعطى العاجز ولو كان يهوديا وفرض لمولود اللقيط كما يفرض للمولود الآخر ، وأمر بأن يعود المحاربون بعد فترة إلى أهليهم .

وكان لا يقضى بالحد إلا بعد أن يستنفد كل أسباب الشك فىالقضية .وكان يحاول أن يجد مندوحه عنـــه ويقول « إذا رأيتم أخا لكم زل زله فسددوه ووفقوه وأدعو الله أن يتوب عليه » .

يفعل هـــذا كله وهو شديد الخشيه من حساب الله يقول : (لو أن عنزه بشاطىء الفرات عثرت لخشيت أن يحاسب الله عنها عمر يوم القيامة) .

وكان مطبوعا على الحق لا يهاب فيه أحداً . وموقفه مع بن عمرو بن جبله ابن الايهم وخالد وأبو سفيان يعطى المثل فى ذلك حتى أنه اقتسم مع خالد نعليه ومن حسابه لنفسه أنه حرم على نفسه الطعـــام عندما أصابت المسلمين المجاعة واكتفى بالزيت حتى اسود لونه . وكان يمتنع أن يأخذ من بيت المال قرضاحتى لا يدعه الناس له اذا مات قبـــل أن يسدده وقال بئس الوالى أنا — إن شبعت — والناس جياع .

وكان على هذا الزهد مخيفا فقد رفضت بعض النساء زواجه والعيش معه ، وقالت عنه أنه خشن العيش شديد على النساء .

وقد أمن الناس منـــه طابع الشدة والصرامة حتى ليقول للرجل مره إنى أكرهك فيقول له هل ينقص هذا من عطائى فيقول له عمر لا . فيقول الرجل إذن لا يبكى على الحب غير النساء .

فهو يعلم أن حب عمر أو بغضه ؛ لا أثر له فى مجريات الأمـور من حقوق أو عدالة وفى هذا معنى التجرد الخالص الذى يفصل بين العواطف والحقوق .

وكان أبا حنونا عطوفاً ، ولكنه لم يمنح اهله شيئاً يزيد عن عطاء الناس

وعرف بانه يقبل الحق ويرجع عنه ولو كان من أمرأة ويقول أصابت امرأة وأخطأ عمر ، ولم يكن عمر حسن الرأى فى المرأة ولا يرى للزوجه حق فى شأن الرجل وقد رفض أن تناقشه زوجته فى أموره فاستشهدت بأبنته التى تراجع رسول الله فيظل يومه غضبانا .

وكان كحاكم يغار على المرأة ورفض الشاب الذى ناجته المرأة فى خلوتها أن يقيم بالمدينة .

وكان يغار من كل ما يختلف مع طبعه فقد خفق الرجل الذى رآه يتبختر ،

كما ضرب بالدره الأمة التى رآها تتشبه بالحرائر . وساوم الحطيئة على ترك الهجاء فى مقابل ثلاثة آلاف درهم .

من هذه اللمحات القليلة نرى صورة عمر ، صورته النفسية الواضحة وشخصيته القوية الصريحة التى لا التواء فيها ولا تعقيد، فنعرف جلال الشخصيه التى حكمت الامبراطورية الإسلامية عشر سنوات فتركت آثاراً قوية ما تزال باقية حتى الآن فى سجل الحكم تضرب بها الأمثال .

علـــى

تعطيك أحداث حياته منذ فجرها إلى نهايتها صورة « الورع » مظهرها هذه الزهادة المؤمنة مع الشجاعة التى لا تحس معها ميلا إلى الغاية الفريدة أو طمعا فى الوصول الرخيص .

وهو على صفته فى «الورع» لا يتحول مع الزمن ولايترك شعيرة من شعائر خلقه او شميلة من شمائل طبعه فى سبيل مواجهة موقف من المواقف على الصورة التى يواجهه بها خصومه أو من يواجهونه فى حرب أو سلام .

فقد تغيرت الدنيا بعد عمر وهو لم يتغير . واختلفت وسائل الناس فى فهم الأمور وقبولها والاقتناع بها وبقى هو على طابعه من الشجاعة والمرؤة والعدل ، لا يحيد ولا يمالى ولا يحابى فى الحق الذى اعتقده .

لا يعرف البغى ولا يغدر بخصمه قبل المعركة أو فى خلالها فاذا انتهت عامله بخلق رياضى ومروءة . ولا يبدأ أحدا بخصومة أو قتال .

وهو فى السلم حاكم عادل لايجامل ولا يتملق فى الحق ولا يشترى الضمائر والذمم ولا يسأل عن رغبات الطامعين من حوله فى متاع الدنيا وزخرفها .

ولى الخلافة ، والدنيا من حوله مضطرمة بالفتنة والخلاف والصراع . وكانت الأمور فى خلال حكم عثمان قد تحولت تحولا خطيرا عما كانت عليه فى عهد عمر .

كان على بطبيعته واستعداده ومثله العليا يمكن أن يلى الخلافة بعد عمر فيمضى على نفس النهج والطريق ، ولكن الفترة التى قضاها عثمان قد غيرت كل شىء ، وفتحت الكثير من الأبواب التى لم يمكن اغلاقها من بعد . ومرن الناس خلالها على أوضاع وأساليب لم يكن من اليسير ردهم عنها بعد ذلك .

ذلك أن عثمان فى سنه المرتفع ، وفهمه للحياة ، وغناه وثرائه ، وحبه لأهله وللمقربين إليه ، كل هذا بالاضافة إلى أسلوبه فى الحكم ، جعل من العسير على «على» أن يمضى فى الاسلوب الذى رأى عليه الصاحبان أبو بكر وعمر ، وعلى النسق الذى رسمه رسول الله .

أضف إلى ذلك أن الزمن كان قد بعد بالناس عن أيام الرسول ، وانقضت فترة طويلة استقر فيها الإسلام ، وفتحت الأمصار ، وتدفقت الأموال على مقر الخلافة ، وكاد أن يتوقف الجهاد ، وشمل الناس جو من الحياة الهادئة اللينة ، وكان عثمان قد أذن للصحابة فى أن يقصدوا إلى الأمصار فيقطنوا فيها ويبنوا بها القصور . كل هـذا كان له أثره فى أن يقصر أمد على فى الحكم . ويقرب من نهايته .

ربى فى أحضان الاسلام الأول وكان ثالث ثلاثة دخلوا فى الدين الوليد ونشأ وفى دمه هذه الصورة الحلوة الرائعة : صورة رسول الله فى حربه وسلمه وزهده وتقشفه ، وحكمته وعلمه ، وكان يخرج مع الرسول وخديجة يصلون فى الشعاب وعرف منذ شبابه الباكر بالشجاعة ، وهو الذى اختاره الرسول لينام فى فراشه ليـلة الهجرة ، حيث التحف برده الأخضر وقضى ليلته بينما ذهب الرسول وصاحبه إلى الغار قبل ذلك وهو يعلم أن قريش تأتمر بالنائم لتقتله، وهاجمه القوم فى أول الصباح ولما لم يجدو محمداً فى الدار أوسعوه ضرباً وحبسوه فى المسجد وأقاموا عليه الحراس والأرصاد .

وخاض المعارك كلها إلى جوار رسول الله ، وكتب عقد الحديبية ، وتلا صدر براءة فى العام الذى حج فيه أبو بكر بالناس حيث ارتضى الرسول أن يؤدى عنه هذا رجل من أهل بيته .

وعرف عنه أنه ما صارع أحداً إلا صرعه . ولم يبال الحر ولا البرد ، جريئا

على الموت ، خرج لعمرو بن ود فى معركة الخندق عند ما نادى هل من مبارز فلما رآه عمر وقال له : إن من أعمامك من هو أشد ، وإنى أكره أن أريق دمك فقال له علي : ولكنى والله لا أكره أن أريق دمك ، فهوى عليه بسيفه فتلقاه على درقته ، ثم ضربه على فقتله .

وكان فى خلافة أبو بكر وعمرو عثمان الناصح المشير .

ولما بويع بالخلافة ، بدأت أسباب الصراع بينه وبين طلحة والزبير وعائشة من ناحية ومعاوية من ناحية أخرى وفتح هذا الباب من الخصومة الداخلية .

وترك على المدينة إلى الكوفة فأقام بها ، ولم تكن أيامه بعد الأيام حرب وخلاف وصراع وفتنة متصلة بين خصومه مرة وبين أنصاره مرة أخرى حتى انتهى إلى نهايته .

أحبه الرسول وأخاه بنفسه مرتين ، وزوجه من ابنته فاطمة بعد الهجرة ، ولم تكن غريبة عنه فقد ربيا معا فى حجر محمد وخديجة ، ومنها رزق الحسن والحسين فأحبهما الرسول وكلف بهما كلفاً شديداً بعد أن فقد أبنائه ابراهيم والقاسم وعبد الله ، وكان يصحبهما إلى المسجد ويضيق بفاطمة إذا أغضبتهما .

ولا غرو ان يحب محمد عليا فهو الذى ضمه إليه وهو صغير بعد أن جهدعمه فى سبيل العيش وتبادلا معا ناقة واحدة فى الطريق إلى بدر .

وكان يستحى من العورات . وقد ترك طلحة بن عثمان فلم يجهز عليه فى أحد لأنه كشف عورته ، وأصابته فيها ست عشر ضربة ولم يبالى بها فقد كان يحمل لواء الرسول بعد أن قتل مصعب بن عمير وقد وقف يناضل عنه ويدافع حين تفرق المسلمون .

وأرسله الرسول فى أثر القوم بعد أن انصرفوا من أحد ليعرف ماذا يكون

من أمرهم فلما رآهم يركبون الإبل عرف أنهم قصدوا إلى مكة فعاد إلى الرسول يبلغه الأمر .

وفى «خيبر» امتنعت بعض الحصون على المسلمين ، بعد أن جهد أبو بكر يوما وجهد عمر يوما آخر وقال الرسول لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه ، ليس بالفرار ، وبات المسلمون يحزون من سيكون فلما أصبح الصباح أعطى الراية لعلى .

ومضى على برايته فلما دنا من الحصن ، خرج إليه أهله فقابلهم فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده فتناول على ابن أبى طالب بابا كان عند الحصن فترس به عن نفسه فلم يزل يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقى الباب من يده حين فرغ وقد حاول ثمانية من أصحابه أن يرفعوا الباب فما استطاعوا .

وبعث به الرسول إلى همدان بعد الحديبية فأسلم أهلها .

ولم يندب «على» فى خلال خلافة أبى بكر وعمر وعثمان لقيادة الجيوش ، ولم يدع إلى الولاية والامارة هو ولا أحد من أهل بيته ولقد صور عمر مرمى هذا حين قال للعباس إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وتركم والله ماأدرى أضن بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم أم خشى أن تبايعوا بمنزلتكم منه

وتوقف على عن البيعة لأبى بكر أول الأمر ، ثم بايع ، وكان فريق من المسلمين يراه أحق بها ، ولكن عليا عندما توفى الرسول كان فى سن الثلاثين وهى سن لا تؤهل للخلافة .

وفى نهاية حكم عمر كان قد جاوز الأربعين فكان ممن وضعهم عمر فى قائمة الشورى ، وأطلق على «على» عبارة فى القضاء مع أنه لم يلى القضاء وهى «قضية ولا أبا حسن لها» الا أن يكون حضوره لمجالس الخلفاء الثلاثة ومشورته فى بعض الأمور .

ثم جاءت الفتنة فى عهد عثمان فكان موقفه منها دقيقا غاية الدقة فقد كان يخالف عثمان الرأى فى بعض الأمور، وكان الناس يقصدونه ويكلمونه فى تصرفات عثمان وأتباعه .

وكان الترف واكتناز المال وانصراف كبار الصحابة إلى الأمصار وتوزيع الثروة هو مصدر الفتنة الجديدة فى المجتمع الإسلامى، وكان عثمان لا يستطيع ردها

وانتهى الأمر بمقتل عثمان ووصول الأمر عليه على هذه الصورة من الخطر والفتنة فواجه الموقف على طريقته وبأسلوبه فأغضب ولم يرض . وانتصر على خصومه فى موقعة الجمل . وكاد أن ينتصر فى موقعة صفين لولا أن خدع أنصاره عندما رفع أصحاب معاوية المصاحف على السيوف وأرغم على قبول التحكيم الذى كان ضده .

ثم تمرد أنصاره عندما رغب إلى معاودة قتال معاوية .

وهنا أراد القدر أن يضع حداً لحياة هذا الرجل الورع المجاهد حين صمم ثلاثة من الخوارج على قتل على ومعاوية وعمرو ففشلت محاولات عمرو ومعاوية وقتل على .

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها . وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح . ولقد طلبت القتل فى مظانة فلم يقدر لى الا أن أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير » .

كانت هذه عبارة خالد الأخيرة قبـــل أن ينزل الستار على حياته الحافلة لتصبح بعد ذلك قصة خالدة فى فم التاريخ .

القصة العجيبة فى كل سطر من سطورها ، فى أيامها قبل الإسلام وبعد الاسلام . عجيبة فى الجهاد والفتح ، وعجيبة فى النهاية المحزنة التى انتهت بها .

مائة زحف انتصر فيهـــا خالد فى الجاهلية والاسلام وفى مدى امتد أكثر من ثلاثين عاما . بدأه فى مكة وختمه فى حمص وقنسرين ومضى رافعا سيفه فى وجه العدو فى شبه الجزيرة العربية إلى العراق ثم إلى الشام . وهو حيث يمضى الفارس المظفر المنتصر ذى الرأى فى الحرب والتنظيم ، وذى الحيلة والخدعة للخصوم ، وذى البأس الشديد على الكفار ، وزعماء حروبهم وقادة جيوشهم

وله فى ذلك مواقف غر خالدة ، يوم أجرى البحر بدم خصومه ، ويوم اليمامة ، يوم مقتل مسيلمة ، وهزيمته لطليحة بن خويلد ومقتل مالك بن نويرة . وجولاته المظفرة فى حرب الرده وفى ذات السلاسل ، والمزار ، والولجة وأليس ، مغيشا وهجماته فى الحيرة وعين التمر والأنبار ودومة الجندل والفراض على شاطىء الفرات وموقعه عقرباء الطاحنة .

ومسيره بالجيش من العراق إلى الشام فى مفازه لا ماء بهـا ، يوم أعطش الابل ثم سقاها وكم أفواهها ومضى ينحرها فى مراحل الطريق فيروى الناس والخيل ، ومواقفه فى اليرموك ودمشق وحمص وقنسرين .

وكان خالد فى هذه المواقع قديرا على احراز النصر بالتكتيك الحربى المبتكر يعرف كيف يقوى الروح المعنوية فى جنوده واتباعه ويعرف كيف ينظم الجيش ويقسمه إلى كراديس ،وعندما وصل إلى الشام وجد جيوش المسلمين تقاتل متساندة، كل قائد على حدة، عمرو فى فلسطين وأبو عبيدة فى حمص وابن أبى سفيان فى دمشق . فلم يوافق على هذه التجزئة واقترح عليهم تبادل قيادة الجيش الموحد وقال،هذا يوم من أيام الله لاينبغى فيه الفخر. اخلصوا جهادكم وارضوا الله ولنتعاون الامارة وليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد بعد . لاتقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم على انتشار وتساند ، وكان من نتائج هذا نصر المسلمين فى اليرموك وكان لا ينيم ولا ينام ، ظل يترقب حول سور دمشق حتى عرف أن فرحا أقيم لمناسبة ميلاد طفل للبطريك ، فهاجم السور من مكان ضعيف واقتحم المدينة .

وعرف كيف يعالج نفسيات الجند فأمر أن تسير فرقه من نساء العرب مع الجيش لتقوى من عزم الجنود وتدفعهم إلى الحماسة فى الحرب .

واستعمل نظام المؤخره ، وأسلوب المفاجأة ، وطريقة التطويق وعندما واجهته الخنادق ، لم يتوقف ، نحر صفاف الإبل من جيشه وألقى بها فيها ثم أمر الجيش باقتحامها .

وعرف بالقسوة القاسية فى قتال أهل الرده ، يقتل دون رحمة أو شفقة ، فيقطع الرقاب ويدمر القرى . حتى وصف عمر سيف خالد بأن فيه رهقا .

وعندما اجتمعت عليه الجموع فى أليس ،دعاالله أن منحه اكتافهم ألا يستبقى منهم أحداً حتى يجرى النهر بدمائهم . فلما تمكن منهم ظل يأسرهم حتى إذا انتهى من المعركة أمر بضرب أعناقهم فى النهر فجرت دمائهم مع مياه النهر ثلاثة أيام .

أسلم خالد متأخراً ، فقد كان على رأس جيش قريش فى موقعة أحد ، وكان عاملا من عوامل هزيمة المسلمين فيها . وظل خالد على رأيه فى الاسلام إلى ما بعد عمرة القضاء .

وكان قد شهد المسلمين فى الحديبية ، ورأى الرسول وهو فى أصحابه بعسفان يصلى ، فقام وراءه وتعرض له : يقول خالد « فصلى بأصحابه الظهر إماما فهممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا وكان فيه خيرة . فأطلع على ما فى أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف فوقع ذلك منى موقعا وقلت الرجل ممنوع وافترقنا . فلما صالح قريشا بالحديبية ودافعته قريش بالسراح قلت فى نفسى أى شىء بقى . أين المذهب أ إلى النجاشى فان اتباع محمداً وأصحابه آمنون عنده أفاخرج إلى هرقل ، فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية . أفاقيم فى عجم أو أقيم فى دارى فيمن بقى » .

وبينما هو فى هذه الحيرة دخل الرسول مكة فى عمرة القضاء وسأل عنه وقال « ما مثل خالد يجهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خير له وقدمناه على غيره » .

وسمع خالد هذا فاتجه إلى المدينة وأسلم ، ومنذ ذلك اليوم فتح له فى التاريخ باب من الخلود لم يفتح لمثله من قبل . فقد أتيح له الظفر فى كل معركة حتى أطلق الرسول عليه عبارته الباقية « سيف من سيوف الله » وأخذ مكانه سريعا فى الصفوف الأولى ، وعندما فتحت مكة كان أحد الثلاثة الذين سيطروا على الكتائب سعد بن عبادة والزبير بن العوام وخالد .

واشترك فى حياة الرسول فى غزوتى مؤتة وحنين . ولكن بطولاته وعبقريته الفذة لم تبرز بصورة واضحة متألقة إلا فى معارك الرده .

ولا شك أن انتصاراته فى شبه الجزيرة فى الردة كانت بعيدة الأثر فى استقرار الإسلام وثبات قوائمه بعد أن كادت تزعزعه دعوات المتنبئين ، واندفع إلى العراق

قصى زاحفا حتى ضرب دولة الأكاسرة فى الحيرة وصلى صلاة الفتح ثمانى ركعات بتسليمة واحدة. وفى الشام بلغ قمة الظفر بمعركة اليرموك حيث هدم ركن دولة الرومان وصدهم إلى ما وراء حدودهم وأتم النصر فى قنسرين .

وبذلك كان خالد قد سجل فى تاريخ الاسلام صفحات غراء بعيدة الأثر فى كيان الامبراطورية الاسلامية وعظمتها .

وكأنما كان ذلك إيذانا بانتهاء مهمته ، فقد بلغ غاية الشهرة وتحدث الناس عنه كأنه إله فى الحرب لا يهزم . وكأنما خشى عمر أن يفتن الناس به فيعجزوا عن الحرب إذا لم يكن على رأسهم خالد ، « إن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع » .

فاذا عدنا إلى حياة خالد الخاصة وجدناه إنسانا طموحا يصل من الرجولة الى ذروتها فهو محارب مستميتا فاذا انتهت الحرب أحب الحياة الناعمة وبهجتها ولقد أثر عنه كثرة الزواج والاعراس ، حتى تكاد تجتمع فى نفسه لذة النصر ولذة العرس . كان يقول « ما ليلة يهدى إلى فيها عروس أنا لها محب أو أبشر فيها بغلام أحب إلى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو » وليس عليه فى هذا من ضير فهو فارس كامل الرجولة ، حاد العاطفة . تزوج فى وادى الوبر بنت مجاعة، وتزوج فى دومة الجندل ابنة الجودى وتزوج فى ميدان القتال فى حرب اليمامة .

وتعرض للمؤاخذة من أبى بكر وعمر لزواجه من امرأة مالك بن نويرة بعد قتله ودعاه الخليفة لمناقشته فقدم وعليه قباء عليه صدأ الحديد معتجراً بعمامة له قد غرس فيها أسهما فلما أن دخل المسجد قام إليه عمر فانتزع الأسهم من رأسه فحطمها وقال له قتلت امرؤا مسلما ثم نزوت على امرأته والله لأرجمنك بأحجارك وخالد لايكلمه، فلما دخل على أبى بكر واعتذر له قبل عذره .

عزله عمر بعد أن ولى الخلافة عن رئاسة الجيش وأسندها إلى أبى عبيدة فعمل معه جنديا ، ثم عزله بعد ذلك عن العمل كله عندما علم أنه أجاز الأشعث ابن قيس بعد أن مدحه بعشرة آلاف درهم . وقد حاسبه عمر بعد أن أمر بأن يعقل بعمامته عما إذا كان قد أجاز الأشعث من ماله أم مال المسلمين. وقد حوسب فى المسجد الجامع واعترف بأنه أجازه من ماله . واستقدمه عمر إلى المدينة واقتسم معه ماله حتى نعلاه .

وعاد خالد إلى حمص فبقى فيها ما بقى من حياته ، أمداً لا يقل عن أربع سنوات ، عاشها بين أهله وولده ، وكان له ولد كثيرون فقد منهم فى طاعون الشام نحو أربعين ومات وهو فى سن الخامسة والخمسين .

ولم يوجد فى بيته عند موته غير فرسه وغلام وسلاحه وقفه للجهاد فلما علم عمر بذلك قال رحم الله أبا سليمان كان على غير ما ظنناه به والله لقد كان سداً لنحور العدو ميمون النقيبة .

وعندما جاء الموت عمر تمنى أن لو كان خالدا حيا ليعهد إليه أمر الخلافة ولاشك أن محنة عزله لخالد تعطى صورة غاية فى الروعة ، هى بطولة أخرى لا تقل عن بطولته الحربية شيئا . فهو الجندى القدير على ضبط النفس الصابر الذى لم يذهله تصرف عمر معه عن واجبه الحق حين لم يستطع أحد أن يفتح له باب الفتنة أو الوقيعة ، ورضى أن يعيش معزولا وهو يرى ميادين القتال مفتوحة وهو بعيد عنها .

لقد حوسب خالد وحوكم وهو فى أوج النصر وعزل وهو يطوف باحلام خصوم الاسلام، ولكنه ظل أيامه كلها لا يذكر عمر بسوء ، ولا يفتح للفتنة بابا .

وقوم عمر عروض خالد الذى أذن له أن يأخذ ما زاد على الستين ألفاً فأخذ منه عشرين ألفا فادخلها بيت المال .

واعتذر عمر عن عزل خالد فقال إنه كان يريد أن يحبس ماله على صعفة المهاجرين .

ولو أن ترك خالد فى زحفه الرهيب ، وعلى رأسه طاقية النصر التى صنعها من شعر الرسول ، وجعلها تميمته ، لوصل إلى عاصمة قيصر ولفضها على اهلها (١) .

(١) تفصيل قصة الخلاف بين عمر وخالد فى كتابنا (عظماء على طريقة المقابلة) .

أبو ذر

(يرحم الله أبا ذر يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده) كذلك وصفه الرسول ، وكذلك عاش ومات .

عاش يحمل الدعوة إلى الزهـد . ويواجه عثمان ومعاويه بما يكرهان ويقول كلمة الحق ، ويدعو النـاس إليها . وتمثل فى حياته وخلقه وتصرفاته صوره الزاهد الورع ، المؤمن بمـا يقول . الذى لا يخشى فى دعوته لوما ولا عقابا .

أبو ذر هو الزاهد الأول الذى تلقى دروس الزهد عن رسول الله فكان لا يفترق عنه لحظة فى سفر او حضر، يستمع إليه ويسأله ويحفظ عنه . والذى انقطع إلى عبادة الله معرضاً عن زخارف الدنيا . فاذا جن الليل آوى إلى المسجد فنام مع أهل الصفة .

وأحبه الرسول لزهده وتقشفه ، وقضى رسول الله ومضى أبو ذر يبشر بدعوته فى احتقار الدنيا والزهـد فيها ورعايه الفقراء وإنفاق الأموال فى سبيل الله .

ويقول « إن الدنيا دار من لا دار له . ومال من لا مال له ولها يسعى من لا يقين له » فاذا مات له ولد من أولاده قال « إنما يولدون للموت ويعمرون للخراب ، ويحرصون على ما يفنى ، ويتركون ما يبقى ، الا حبذا المكروهان الموت والفقر »

وهجر أبوذر المدينة إلى الشام بعد موت أبو بكر . وأقام هناك . ورأى الدنيا وهى تتفتح للسلمين فيبنون القصور ويكنزون الأموال ويلبسون الحرير

ويأكلون المرقق . فجاشت نفسه بمعانى الورع ، وآمن بأنه لا بد أن يواجه الجوع ويخاصم المترفين ويبث فيهم كلمة رسول الله .

وكان يكتفى بشربه ماء أو لبن فى ليلته .وفى كل جمعة قفيز من قمح . وكان ينفق ما يصل إليه من المال القليل ويقول «إن خليلي عهد إلى ايما ذهب أو فضة أوكىء عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله »

واجتمع الفقراء إلى أبى ذر يستمعون إليه ، وهو يحدث عن الزهد والتقشف ، ويبدو فى قامته الطويلة النحيلة ، ولونه الأسمر ، وعليه جلبابه الرقيق ، إنه صورة ممثلة للزهد .

ومضى أبو ذر يندد بالصحابة الذين أخذوا يجمعون الذهب والفضة ويبنون القصور ، فقد كان عمر يحجزهم فى المدينة فلما قضى ، وولى عثمان ، خرجوا إلى الأمصار .

وكان أبا ذر قد عاد إلى المدينة بعد موت عمر وولاية عثمان فرآها وقد تحولات الخلافة الى صورة الملك ، وبدت مظاهر الترف . فبنى الزبير وطلحه وعبد الرحمن بن عوف وأبا هريره الضياع والقصور . وكان لسعد بن أبى وقاص دار بالعقيق . ووهب عثمان أهله ومن حوله المال الكثير . أعطى مروان والحرث بن العاص وزيد بن ثابت ولم يسكت أبو ذر فقد كان لا يخشى أحداً . ومضى يدعو الناس إلى الزهد ويهاجم عثمان . ويتلو الآية الخالدة التى جعلها مرآة دعوته « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » .

وكره عثمان دعوة أبى ذر ، ودعاه ليصرفه عما يقول . واتهمه بانه يحرض الناس عليه وكان أبو ذر قاسيا لا يعرف الهواده فيما يؤمن به، واجه عثمان بعنف « فوالله لأن أرضى الله بسخطك أحب إلى وخير لى من أن أسخط الله برضاك» ولم يجد عثمان بداً من أن يلحقه بالشام .

وفى الشام اصطدم أبو ذر بمعاويه مره ومره . كان معاويه يختزن الفىء ويقول أنه مال الله . وكان أبو ذر يناهضه الرأى ويدعوه إلى أنه يوزع المال على أهله لأنه مال المسلمين .

وبنى معاويه قصر الخضراء واتفق عليه مئات الآلاف وكره ذلك أبو ذر واتهمه بالاسراف وتوهجت دعوة أبى ذر فمضى يحدث الناس فى المسجد ويحمل على معاويه وعثمان . وصاح صيحته ضـــد الأغنياء وكانزى المال . فاجتمع له الفقراء وأحبوه .

ووشى به رجال معاويه وقالوا له: إن أبا ذر يفتن الناس ويفسد عليك الشام ولم يقف أبو ذر عند الدعوه بل قصد إلى معاويه مره ومرات يناهضه الرأى ويطالبه بأن يصرف أموال الفىء التى هى من حق المسلمين إليهم ولا يختزنها ويقول له إن الرسول وأبا بكر وعمر كانوا يوزعونها واتهمه بأنه إنما يحتجزها ليصرفها إلى خدمة حراسه وأبهته بينما لا يحل له إلا ما يكفيه لملبسه وطعامه كرجل من أوسط الناس .

وكان معاويه يهدده بأنه يدعو الناس إلى الفتنة . وكان أبو ذر يرفض أن يصمت ويقول لا أرجع حتى يبذل الأغنياء فضله اموالهم . ورفض أبو ذر أن يدفع الأغنياء الزكاه . وقال إن البر هو انفاق المال كله لا يبقى منه شىء .

وكان قدوته فى دعوته الرسول نفسه الذى لم يترك درهما ولا ديناراً ، وحديثه « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة » .

وحمل حملة شعواء على اكتناز المال وبناء القصور والتماس ألوان الطعام وقد خرج رسول الله من دنياه ولم يشبع من خبز الشعير .

وحاول معاوية أن يتخذ إلى قلبه الطريق على أسلوبه فأرسل إليه ألف دينار ذات مساء فلم يصبح الصباح حتى كان أبو ذر قد وزعها على المعوزين . فلما صلى

الصبح ، جاءه رسول معاويه يقول له « إنقذ جسدى من عذاب معاوية . إنه قد أرسلنى بهذه الدنانير إلى غيرك فأخطأت حين جئت بها اليك .فقال له أبو ذر يا بنى والله ما أصبح عندنا من دنانيرك شىء ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها»

قد أكد هذا لمعاويه أن الرجل صادق فى دعوته ، وأنه لم يدخر المال فى بيته ليلة واحدة ، ولم تغن ذلك أبا ذر فتيلا عن دعوته فمضى يدعو الناس ويجتمع بهم وينهاهم عن كنز المال . ولا يكف عن الحمله على الأغنياء .

ووقف معاويه يوما على المنبر يقول (إنما المال مالنا والفىء فيئنا) فوقف له رجل من أقصى المسجد وقال له إن المال مال المسلمين لا ماله هو .

وعرف معاويه أن دعوة أبا زر قد استأصلت فى نفوس الناس وأنها بدأت ثمارها .

وجاء أبا ذر من يهدده بهدر دمه . ولكن انى لهذا أوغيره أن يرد الرجل الزاهد الذى لا يهاب الموت ولا يخشاه . وأصر أبو ذر على أنه لا يكف حتى يوزع المال على جميع المسلمين وأعلن أن أغضاب معاويه خير من أغضاب الله.

وكان أبو ذر فى خلال هذه الفترة من الكفاح قد لقى مزيداً من الإعنات فقد انقطع عنه المال وعاش حياة مهددة ، واضطهده أصحاب معاويه . ولكن ذلك كله لم يرده عن دعوته ولم يكفه عن صيحته .

وماتت ابنته بعد أن مرضت طويلا . دون أن يعنى بها فقد كان ماضيا فى طريق دعوته ولا يعوقه شىء.. مؤمناً بأن الأموال لله والأموال فتنة .

وضاق معاويه بابى ذر فكتب فى شأنه إلى عثمان يقول « إن أبا ذر يجمع حوله الجموع وقد ضيق على وأعضل بى. ولا آمن أن يفسدهم عليك فان كان لك فى القوم حاجه فاحمله » وحمل على قتب إلى المدينة حتى كاد أن يتلف .

وفى المدينة عاد إلى دعوته وإلى صراعه مع عثمان . ومضى يهاجم أسلوبه

فى الحكم ويدعو إلى إنفاق المال ويطالبه بأن يتبع طريق صاحبيه . وحظر على الناس أن يجتمعوا به ولكن الناس كانوا يستمعون إليه مؤمنين به . ومضى هو يفتيهم ويهاجم الأغنياء فى عنف ولا يخشى شيئاً.

وكره عثمان بقاء أبى ذر فى المدينة ونفاه إلى (الربذه) حيث عكف على العبادة والصلاة . وبنى مسجداً صغيرا يصلى فيه .

ولم يلبث موسم الحج أن يبدا حتى يتوافد الناس على أبى ذر وهم فى طريقهم إلى مكة ليستمعون اليه وهو لا يتحدث عن عثمان ولكنه يتحدث عن الزهد والإيمان وانفاق المال فى سبيل الله .

وأمضى أيامه فى هذه المنطقة القفراء مع زوجته وبعض غلمانه . وقد أعطاه عثمان بعض الابل وأجرى عليه العطاء . وكانت قد علت به السن . وفقد أولاده واحداً بعد واحد . وكانت الدنيا هينه عليه منذ اليوم الأول فلم يحفل بها . وزادته الوحـــدة انصقال نفس وإشراق قلب . ومضى يذكر أيامه فى صحبة رسول الله . وتلك الوصايا التى أوصاه به .

وذكر يوم أن قال له الرسول إنه سيمتحن وسيلقى من بعده الأذى وكيف انه لم يرتجف وانما سأل عما اذا كان ذلك فى الله فلما امن الرسول على قوله قال مرحباً بامر الله .

وفى هذه الفلاه الموحشة جاء الموت لأبى ذر ، وليس من حوله إلا زوجته وليس عنده ثوب يكفن فيه ووقفت زوجته تحدق فى الفلاه لتشير إلى أى من تراه ماضيا لتدعوه .

فلما أقبلت قافلة من الناس دعتهم إليه. فلما رآهم ذكر قول الرسول « ليموتن رجل منكم بفلاه من الأرض تشهده عصابه من المؤمنين » .

الحسين

يعد (الحسين) نهاية القصة التى بدأت قبل أن يلحق الرسول بالرفيق الأعلى. عندما التقيا العباس وعلى يتسا.لان عما لهما فى هـــذا الأمر من شيء . كان العباس يرى أن يذهبا إلى الرسول ليوصى لهما . ورفض على. وقضى رسول الله وبايع الناس أبا بكر وتاخر على قليلا ثم بايع . وتتابعت الأيام ثم جاء عمر وامتد زمن حكمه ولم يستعمل على . لم يوله ولم يأذن له فى الاشتراك فى الجهاد. ثم جاء عهد عثمان وبدأت الدولة الإسلامية تأخذ صورة جديدة فيها الغنى والثراء والترف والمال الوفير والقصور والرياش

وهنا ظهر أبو ذر يدعو إلى الاشتراكية الإسلامية ويمزجها بحب آل البيت وكانت هذه بذرة التشيع لهم . وقتل عثمان وأختير عليا خليفة وتالب عليـــه الصحابه فى المدينـة فخرج إلى البصره ، ورفع معاويه قميص عثمان على المنبر مطالبا بدمه . وانتهى الصراع بين على ومعاويه على غير ما يحب على . فقد خدع أنصـاره بالتحكيم فأوقفوا المعركة ثم خـدعوا بالحـكم فيه فاعدوا لمعركة جديدة . واختلف الأنصار فى على نفسه . وانتهى هذا الصراع بقتل على وتفرد معاويه بالحـكم .

ووقف معاويه ينظر إلى ابناء على، وانتهى أمر الحسن بتنازله عن حقه فى الخلافة. وأدخل معاويه نظام توارث الخلافة فبايع ليزيد فى مكة بالقوة والعنف وظل إلى نهاية اجله ينظر إلى الحسين على أنه عـدوه اللدود . وأوصى به يزيد فيمن اوصى من شباب المسلمين وأبناء الصحابة وأل البيت .

فى هذه البيئة وعلى هذه الصورة من صور الصراع واجه الحسين الحياة. كان فى سن الثلاثين عندما بدات هذه المعركة التى كان مقتـــله نهايتها

وبداية معركة أخرى ، كان فى تلك السن عند ما نفى عثمان أبا ذر إلى الربذة ، وأبو ذر هو النذير الأول بما وقع بعد ذلك من صراع . وعاش فى أتون الحوادث يرى عثمان وأهله وهم يذهبون فى الثراء والترف غايته، ويرى الصراع بينه وبين الأمصار . ويكون أحد الواقفين على باب عثمان عندما تجهمت الأحداث وخيف قتله . ثم عاش بعد ذلك فى أيام أبيه . وذهب معه إلى الكوفه وشهد الجمل وصفين والنهروان، ورأى كيف تغلب معاويه على أبيه بالحيلة والخدعة ثم رأى موقف معاويه من الحسن ثم منه . كل هذا كون عنده هذا الاحساس بالحق الطبيعى الشرعى الذى تحاول الاحداث أن تقضى عليه ، فآمن بأنه لا بد أن يكون واحداً من اثنين اما « الفداء » لهذا الحق اما « الظفر » به .

وقد تحقق له الأمل الأول فكان قتله على هذه الصورة البشعة ، وكان استشهاده على هذه الصورة الرائعة، بذرة لثورة ضخمة امتدت جذورها فى المجتمع الاسلامى حتى قوضت النظام الأموى كله .

ولد الحسين فى السنة الرابعة للهجرة ونشا فى بيئة النبوة . جده الرسول وأمه الزهراء وأبوه على ابن أبى طالب وقد سماه الرسول باسمه وكان يحبه ويحمله ويفرح به ويقول لأمه إن بكائه يؤذيى ويدعوه بابنه ويرعاه فى حنان وقد روى أن النبى كان يدلع لسانه له وحمله ذات مرة وأطال السجود به . فلما سأل عن سجدته الطويلة قال ان ابنى ارتحلنى فكرهت أن اعجله . وكان الحسين أشبه الناس فى الخلق والخلق ، ونشأ وهو يسمع إلى جده النبى . وأبوه البليغ المقوى . وقد ورث منه حب الفروسية والبطولة كما عرف بالذكاء والشجاعة والوقار .

وقد خالف أخاه الحسن فى موقفه من معاوية وتسليمه له وأشار بالقتال ولذلك ظل معاوية يخافه ويهابه ويحس بانه صورة من على . ووصف حلقته

بقوله « حلقة فيها قوم كان على رؤوسهم الطير فتلك حلقة ابى عبد الله مؤتزراً الى انصاف ساقية » .

وقد عرف بالبلاغة والشعر ورصانه العباره والفقه . وكان يطارح الأعراب الشعر ويناقلهم الأدب والشذور .

وكان وفيا كثير الاشفاق والعطف « اذا وصلته الهدايا بدا بايتام من قبل مع أبيه فى صفين فاذا بقى شىء نحر به الجزر وسقى به اللبن »
وقد عرف فى الحرب بالشجاعة الفائقة وله مواقف مشهودة فى افريقيا الشماليه وطبرستان والقسطنطينية . وشهرة واسعة فى المصارعة وركوب الخيل والعدو .
وعرف بالعاطفة المحبة للجمال . والنفس الراغبة فى الفكاهة والتبسط . وكان يضحك لفكاهات أشعب . ولكن ذلك لم يصرفه عن طبيعته المتدينة الأصيلة . فكان يصلى فيطيل السجود . وكان الى ذلك صواما قواما .

كان الحسين فى جمعه بين الفروسية والأدب رمزاً للرجولة الكاملة هذا الى انسه بالزهر والعطور حتى اثر عنه انه أطلق جارية حملت اليه ذات صباح طاقة من الريحان .

وكان الى ذلك كله كيسا لبقا « تغلب فيه الفروسية على السياسة » كعلى فهو يؤمن بقوته على مواجهة الخصم بحد السيف . ولكنه لا يرى مواجهته بالخديعة والمكر والدهاء .

وللحسين موقفان قبل موقفه الأخير : موقفه من معاويه حين أراد ان يبايع ليزيد فى المدينة فقد عارضه فى ذلك وأنكر عليه وحاول معاويه أن يستميله فلم يصل الى ما يريد فدخل على عائشه فشكاه وبعض اله حابة اليها وهدد بقتلهم أن لم يجيبوه الى بيعه يزيد . فلما اجتمع بالحسن وعبدالله بن الزبير وعبد الله ابن عمر قال : فانى قد أحببت ان اتقدم اليكم انه قد اعذر من انذر وانى كنت

أخطب فيقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رؤوس الناس فأحمل ذلك وأصفح وإنى قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد على أحدكم كلمة فى مقالى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه . ثم دعا صاحب حرسه فقال : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما .

عنـــدما مات معاوية وولى يزيد وأريد له أن يبايع فقـــد رفض ذلك على أسلوب من الحيلة حين قال لعامل يزيد : إن مثلى لا يبايع سرا فاذا خرجت إلى الناس ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً ثم قصد إلى مكة وقد ظل الحسين وفيا لمعاوية بعد وفاة أخيه الحسن الذى عاهده على المسالمة ورفض أن يستمع لأصحابه الذين حرضوه على خلع معاوية .

وبعد: فسيظل الحسين علما على قصة الاستشهاد فى تاريخ الإسلام كله فما من شهيد إلا وهو صورة من الأسوة الصادقة التى رسمها الحسين وكان عميدها ورائدها، أسوة الاستشهاد فى سبيل الإيمان بالحق دون مبالاة لأى عاقبة من العواقب التى يباليها الساسة وأصحاب المناورات .

لقد مات الحسين فى سبيل الفكرة ، فى سبيل الحق الذى اعتقد ، فقد كان أحق الناس بأمر الخلافة ، بعد ما كادت معالم الخلافة أن تنهار على يد القائم بها والمحيطين به .

وقد أحس الناس فى الأمصار بأنه أهل لها . فدعوه ، فكان لابد له أن يلبى دعوة الرأى العام ؛ وأن يؤدى حق الإسلام المنوط به ، كألمع رجل فى الدولة الإسلامية إذ ذاك .

غير أن الأقدار أرادت غير ما أراد الناس . وغير ما أراد الحسين .

وتغلب السلطان الظالم على الحق الزاحف الذى قضى عليه قبل أن يصل إلى مداه .

ومهما يكن القول فى أن الخطة لم تكن مرسومه على وجـــه دقيق أو أن الأنصار لم يكونوا على عهد استعداد للتضحية، او أن القوى لم تكن قد هيأت لحماية الإمام الجديد فذلك كله لا يعنى أن الحسين قد دعى ، على أنه أحق أهل عصره بأمر الناس . وأن الناس ، وهم الأمة ،هم الذين دعوه ، وهم المرجع فى امر الحاكم الصالح ، وأنه استجاب ثقته بنفسه وغيره على حقوق الله وتلبيه لرجاء الناس .

فلما وصل الى مكانه الموعود كان الأمر قد تطور أو تحول على غير ما ينبغى فواجه الموقف فى رجوله واستبسال. واستشهد وهو يدافع عن نفسه وعرضه والحق الذى يؤمن به .

وقتل الحسين بيد العصبة الغادرة، وقتل بعض أهل بيته وحمل البعض الآخر الى الشام . ولكن مقتله الرهيب ظل احدوثة الدنيا ، وكان له أبعد الأثر فى أصحابه الذين تفرقوا عنه ولم يناصروه.

بات الحسين الليلة الأخيرة وهو يعرف أن خصومه قد أعدوا عدتهم لسحقه والخلاص منه فأذن لأصحابه ان يتفرقوا تحت جنح الظلام . وتلك غاية الخلق ولكنهم أبوا الا أن يموتو دونه.

وكان قد خرج فى الثامن من ذى الحجة على اثر عزمه وتصميمه . لم يكن يعلم أن مسلم بن عقيل رسوله الى اهل الكوفه قد قتل فى يوم وصوله. ولم يستمع الى رأى عبد الله بن عباس الذى أظهر له تخوفه من هذا الوجه وقال له ان اهل العراق قوم غدر وخير لك ان تقيم فأنت سيد اهل الحجاز . وان أبيت فسر الى اليمن فان لأبيك بها شيعه .

ولكنه أصر ، كانما كان يريد القدر المرصود الذى لا مفر منـــه ، فقد

اراد أن يصل الى الحق المنكور او يكون الدم الذى يكتب صفحة الفداء.

قدم نفسة ضحية، فكان مداد معارك ووقود افكار ، ولهيب نيران تاججت فلم تخب الا بعد أن أتت على دولة اميه وقوضت بنيانها.

ظهر التوابون بعد استشهاده فاخذوا بثأره وكلوا نكلوا من قتله وامتدت ثارات الحسين الى قواعد الظلم كلها فاخذت تحطمها واحدة بعد اخرى .

عمر بن عبد العزيز

ما أبعد الفرق بين شبابه وشيخوخته، أ ج بنى أمية هذا الذى من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلا .

كان يرجل شعره حتى يشغله عن الصلاة ويلبس الرقيق من الثياب ويمشى المشية العمرية المعروفة فلما وصل مقام الخلافة كان يلبس الخشن من الثياب . ويأدم بالملح والزيت ويقوم فى الصلاة فيطيل القيام ويركع فيطيل الركوع .

كان فى شبابه أنيقا يرخى شعره ويسبل أزاره ويتبختر فى مشيته وكان مترفا غنيا ، عاش فى مصر فى دار الأمارة بين عظمة الملك وجلال السلطان . وكانت الجوارى يقلدن مشيته، وكان يشترى مطرف الخز بثمانماية درهم ويقول ما اخشنه وما كان يلبس ثوبا فيراه الناس فيه إلا خيل إليه أنه قد بلى . وكان يتطيب برائحة عرفت به فيها القرنفل والعنبر .

وعندما سافر من مصر إلى المدينة كانت هناك عشرات من الجمال تحمل ثيابه . وكان يحذق الغناء ويحبه وله أصوات معروفة .

وفى سن الأربعين ولى عمر الخلافة بكتاب من سليمان بن عبد الملك كتبه عند موته . وهنا تجىء نقطة التحول فى حياة عمر الذى كان معروفا بالوقار والخلق ولم يكن على تجمله صاخباً أو عابثاً .

وفى لحظة واحدة تحول عمر من الترف إلى الزهد فبعثر ملبسه وطعامه ومنزله وبدا فى صورة من الورع قل أن عرفت فى التاريخ إلا للقلائل

اشترى جبة الصوف بثمانية دراهم . وتغير منـــه كل شىء إلا مشيته التى وكل بها مزاحم تابعه . يقول له ذكرنى إذا رأيتنى أمشى فيذكره فيخلطها ثم لا يستطيع إلا إياها فيرجع إليها .

وزهد عمر فى مراسم الخلافة ، رد المراكب المطهمة ورفض السرادق ورفع فراش الخلفاء وضمه إلى بيت المال . وعاد إلى نعلته وحصيره . وأتى له بالجوارى فخيرهن وردهن إلى أهلهن وحملهن إلى البلاد . بل إنه طلب إلى زوجته فاطمة أن ترد ما معها من مال وحلى إلى بيت المال .

ورفض عمر فى يومه الأول أن يقيل فى الظهر قبل أن يرد المظالم . فرد مظالم سليمان كلها ورد الحقوق إلى أربابها . وتنازل عما ورثه فى حلوان . وخرج عما كان تحت يده من قطائع وضياع ، فحرق سجلاتها وأعادها الى المسلمين .

وفرح الناس ببيعة عمر وغضب بنو أمية ، فقد قطع عنهم الاعطيات الضخمة التى كانوا يأخذونها .

وضرب المثل فى قوة الشخصية عندما وقف أمام البيت الأموى كله فلم يكن له خصم سواهم ، فقد ألغى أعطية ٢٠ ألف دينار كان أمر بها سليمان لعتبة بن العاص ، فلما جادله قال له : عشرون ألف دينار تغنى أربعة الآلاف بيت من المسلمين وادفعها إلى رجل واحد .

وشكت عمته من قطع الإعانة التى كانت تحصل عليها فقال لها : ياعمة انهم كانوا يعطونك من مال المسلمين . وليس ذلك المال لى ولكنى أعطيك مالى إن شئت .

ورد مظالم بنى أمية كلها . ما من رجل جاء له فى مظلمة اغتصبت إلا وردها إليه ببينة يسيره ، وقصة روح بن زنباع الذى كان الوليد قد أقطعه حوانيت بحمص معروفة فقد رفض روح أن يسلمها فأرسل عمر من يطلب إليه تسليمها أو يأتيه برأسه .

ودخل إليه أهله يسألونه أن يجرى عليهم ما كان جاريا عليهم من قبل من أعطيات فقال لهم : والله ما هذا المال لى ومالى إلى ذلك من سبيل .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أن عمر جمع بنى مروان وطالبهم بشطر

أموالهم وتقديم نصفها لبيب مال المسلمين ، فلم يجب أحد منهم وقال أحدهم والله لا نخرج من أموالنا التى صارت إلينا من آبائنا فنفقر أبناءنا ونكفر آباءنا حتى تزايل رؤوسنا أجسادنا . فهددهم عمر وأقسم لئن عاش ليرد إلى كل ذى حق حقه .

وكأنما كان موقف عمر هذا من أهله هو نهايته ، فقد دفعهم الى أن يقتلوه على هذه الصورة التى مات بها ، حين دسوا له السم فى طعامه .

يصف عمر نفسه فيقول : كانت لى نفس تواقة ، فكنت لا أنال شيئاً إلا تاقت إلى ماهو أعظم منه فلما بلغت نفسى الخلافة تاقت إلى الآخره .

وبدل عمر حياة الناس ، وسعد الناس بعدالته ، وتحول المجتمع فى عهده عن اللهو والترف ، حتى كان الناس يسأل بعضهم بعضا عن الخير والصيام والصلاة.

رد المجاهدين من الثغور . وأقنع الخوارج ، وأبطل لعن على على المنابر ، وأقام الشعراء على بابه لا يأذن لهم بالدخول .

ولما بعث واليه فى مصر يقول : ان الناس يدخلون فى الإسلام وإن هذا يؤثر على الخراج ويسأله عن أمر الجزية قال له : ضع الجزية عمن اسلم قبح الله رأيك . فإن الله بعث محمد هاديا ولم يبعثه جابيا ، والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا وأنا وأنت حراثين ، نأكل من كسب أيدينا .

وكان فى حوائج الناس يستعمل الشمع ، فاذا حدثه أحد فى شأن من الشئون الخاصة دعا بسراجه من بيته .

طعامه ملح وزيت وعندما ولى الخلافه كانت غلته أربعين ألف دينار ولم يتجاوز عندوفاته مائتى دينار .

قال مالك بن دينار : الناس يقولون مالك بن دينار زاهد ، إنما الزاهد عمر ابن عبد العزيز أتته الدنيا فتركها .

وكان يصلى صلاة كاملة وصفها أنس خادم رسول الله بقوله : ما صليت خلف إمام بعد رسول الله أشبه صلاة بصلاة رسول الله من إمامكم هذا .

آلت إليه الخلافة بكتاب من سليمان , فلما دفن سليمان نحى عنه حامل الحربة وذهب إلى المسجد فخلع بيعة الناس وقال لهم إنهم قد بايعوا دون مشورة وأباح لهم أن يختاروا لأنفسهم ، فصاح الناس , قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، وجمع إليه صحابته والعلماء وقال لهم : من أراد أن يصحبنى فليصحبنى بخمس . يدلنى من العدل إلى مالا اهتدى إليه . ويكون لى على الخير عونا . ويبلغنى حاجة من لا يستطيع إبلاغها . ولا يغتاب عندى أحداً . ويؤدى الامانة التى حملها منى ومن الناس .

وعرف عمر بالبراعة واللباقة فى الحديث ، وآية ذلك أنه جادل الخوارج وهم من هم فى الجدل فأقنعهم فسكتوا وعاهدوه أنهم لا يخرجوا عليه .

دخل على عبد الملك يوما . وكان معه بنوه . فقال عبد الملك : كيف نفقتك قال : الحسنة بين السيئتين يا أمير المؤمنين . قال عبد الملك فما هما قال : والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما .

وفى أول عهده خرج شوذب الخارجى فكتب إليه عمر يقول بلغنى أنك خرجت غضبا لله ورسوله ولست أولى بذلك منى فهلم إلى أناظرك . وإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس . وإن كان فى يدك نظرنا فى امرنا . فكتب بسطام إلى عمر يقول : قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك وأرسل إلى عمر مولى لبنى شيبان حبشيا اسمه عاصما ورجلا من بنى يشكر . وناقشهما عمر . وسمع إليهما واستمعاله وقال له عاصم : أشهد أنك على حق

وقد مكن عمر من الفوز عليهما أنه كان عالما تلقى الفقه باكراً على أنس بن مالك وجماعة من الصحابة وعما أثر عنه « أن لى نفسا تواقة . لقد رأيتنى وأنا بالمدينة غلاما مع الغلمان . ثم تاقت نفسى إلى العلم بالعربية والسفر فأصبت منه حاجتى وما كنت أريد » .

الحسن البصرى

دخل الإمام على جامع البصره فأخرج القصاص وهو يقول : القصص بدعه حتى انتهى إلى حلقه شاب يتكلم على جماعة فاستمع اليه فأعجبه كلامـه فقال : يافتى ، إسألك عن شيئين إن خرجت منهما تركتك تتكلم على الناس وإلا أخرجتك كما أخرجت أصحابك ، فقال : سل يا أمير المؤمنين فقال اخبرنى ما صلاح الدين وما فساده ، فقال : صلاحه الورع وفساده الطمع . قال صدقت فتكلم ،فمثلك يصلح أن يتكلم على الناس » .

ذلك هو الحسن البصرى داعيه الورع والزهـد والتقى ، أول من وضع قواعدالصوفيه ورسم طرائق محاسبة النفس ، وأعلى من شأن فضائل الخوف والرجاء (١) .

وقد صور ذلك فى قوله « إن أخلص الناس إيمانا يوم القيامة أشدهم محاسبة لنفسه ، وأشد الناس فرحا يوم القيامه أشدهم حزنا فى الدنيا ، وأن أكثر الناس ضحكا يوم القيامة اكثرهم بكاء فى الدنيا » .

ومضى الحسن البصرى يدعو إلى تخليص المجتمع من الفساد الذى دب فيه حينما بدا الرعيل الأول من الصحابة يجمعون الأموال ويبنون القصـــور ويتخذون الفراش الوثيرواوانى الذهب والفضة والحجاب والشرطهويقلدون ؛ المظاهر الكسرويه والإبهة الفارسية .

رأى الحسن البصرى أن عوامل الفسادهذه التى سببتها الأموال التى جاءت

(١) يقول « ان الخوف والرجاء دعامتان يستند اليهما المؤمن على أن يكون الخوف عنده أقوى من الرجاء لأن الرجاء عند ما يغلب الخوف يفضى إلى إفساد القلب »

بعد الفتح ؛ لا دافع لها إلا تطعيم المجتمع بمبادىء الزهد .

فبدأ يسخر من النفع المادى،ويحارب المآرب الدنيوية ، ويجمع من حوله المريدين صارفا اياهم عن الانحراف والجشع والتطلع إلى الأثرياء . ومضى الحسن يقول . « انكم لا تنالون ما تحبون الا بترك ما تشتهون . ولا تدركون ما تؤملون إلا بالصبر على ما تكرهون » .

وحتى يثبت هذه المعانى فى النفوس ، مضى يصور الموت بصورة مرعبة تذهل النفوس عن الواقع الذى يعيشون فيه ، واقع الفقر والظلم .

ونصب نفسه قاصا بالمسجد ، مخالفاً مذاهب القصاص من تهويل وإغراق ومضى يتكلم عن الموت وعيوب النفس والزهادة فى المال والشيطان الذى يجرى فى الإنسان مجرى الدم .

وأخذ من حديث رسول الله هذا الجانب الذى يحمل الوعيد ، ويرسم صورة الخوف الشديد ، والتحرز من الصغائر ، والرهبة من عذاب النار ، واستصغار الدنيا الفانية ، وقال أن أساس الدين : التقوى والحزن والخوف . وكانت حلقته مدرسة جديدة فى الإسلام . تدعو إلى الانقطاع لله . وأوصى المنقطعين أن ينتهجوا ثلاثة مسالك : الأمل والأجل والسحر .

يعد الحسن البصرى المدرسة الفلسفية لمذهب أبى « ذر » فقد ولد بعد الهجرة بعشرين عاما ، وتفتحت نفسه للحياة فى عهد عثمان : وكان مقتل عثمان نفسه هو عقدة حياته ، وروح فلسفته .

فقد رأى الثورة على عثمان ، وشاهد أبا ذر ، واستمع اليه ورأى حماسته وعلق بنفسه أثر من معانيه ، وزاد هذا المعنى أنه من الموالى . وقد بدأت للموالى قضية منذ ذلك التاريخ ، بدأت مع الأحداث ، حينما استطالت النزعة العربية واستعلت على ما غيرها . فلما خرج للغزوات رأى هؤلاء الموالى وهم يذهبون

وتوداً للحرب ، بينما يظفر العرب بالغنائم وقد أداه ذلك إلى أن ينصرف من الغزو إلى الزهد . ومن الصراع على مطامع الحياة إلى دعوة الناس إلى العبادة والدعوة إلى كراهية الدنيا والانصراف عنها .

وكانت الصورة المثالية لعهد عمر هي التي رسمت له طريقه والتقى بفقهاء أعلام في المدينة منهم : عياض بن حماد ، ومعقل بن يسار المزني ، وسمره بن جندب ، وأبي عثمان الهندي .

وفي خلال الغزوات تعرف بقطري بن الفجاءه والمهلب بن أبي صفره وغادر الحسن المدينة إلى البصره ايام صفين ، وتردد على حلقات مسجدها واستمع إلى العباس يفسر القرآن وتعلم من حطان الرقاشي القراءات .

والتقى في البصره بعمر بن أبي الحصين ، وعبد الرحمن بن سمره واستمع من هؤلاء جميعاً أحاديث رسول الله وقصص ورعه ، فكونت في مجموعها العوامل التي تتفق مع طبيعته في الاتجاه إلى الزهد . إذ لا شك أن الحسن كان قد تأثر بطبيعة هذا الاتجاه غير أن هذه الصور والرؤى قد أعطته مادة فنه ودعوته وأنشأت ذلك المذهب الجديد الذي انفرد به بن قصاصي البصره ورضى عنه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

وأتيح للحسن أن يذهب إلى أقصى المشرق مع الغزوات فحضر حصار كابل وفتحها . وعمل مع الربيع بن زياد ولي خراسان .

وكان الحسن يؤمن بمبدأ التقيه ولذلك وقف من الدعوات المختلفة ، والصراع المستحر موقف المتفرج .

وعاش ممتنعا عن أكل اللحم والسمن والدخول على الأمراء ثم انقطع أخيراً عن مجلسه في المسجد الجامع .

وعندما سمح سليمان بن عبد الملك للناس في توزيع الأراضي الموات كي يستغلوها ، رأى ابنه الناس وقد أقبلوا على أخذ الاقطاعات فذهب إلى أبيه

يقول : لو أخذنا كما يأخذ الناس فقال الحسن : اسكت،ما يسرنى لو أن لى ما بين الجسرين بزنبيل تراب .

ولم يمنعه هذا من أن ينصح للدعاه وطلاب الملك ، فقد كتب لابن الزبير يقول : ان لأهل الخير علامات يعرفون بها ويعرفونها من أنفسهم . منها الصبر على البلاء والرضى بالقضاء . إنما الامام سوق فما نفق فيها حمل اليها فانظر أى سوق سوقك .

واتسعت شهرة الحسن البصرى وكثر اتباعه فى أواخر أيام معاويه واستجابت البصره لدعوته .

ونقد الولاه وجهر بمخالفتة استخلاف يزيد بن معاويه ، ومعارضه الخلافة الأموية الوراثية ، وقد وضعه هذا موضع مراقبه عملاء الحجاج حتى اضطر إلى الاختفاء والتوارى .

ولكنه لم يمض فى سبيل مقاومة الحكم ، واكتفى بأن يدعو النـــاس إلى الزهد واستصغار الدنيا .

جمع ما بين العلم والورع ، وكان يقال له صاحب العمامة السوداء ، قال عنه فقاده، عليكم بهذا الشيخ فوالله ما رأينا أحداً من صحب رسول الله أشبه بأصحابه منه ، ويقال أنه ما ضحك أربعين سنة .

يأكل خبز الشعير فى خاصته ويطعم أهله الجشكار ، فاذا جنه الليل لبس المسوح ، وغسل اليد إلى العنق . وبات باكيا حتى يصبح .

ولم يخالف قوله فعله ، يبذل المال فى سخاء ، ويرفض زواج ابنته من رجل غنى، بيته من الخشب ، خلو من فراش أو بساط أوحصير ، وسريره منسوج من السعف .

وكان طويل القامة ، عريض العظام ، جميل الوجه وسيما ، عيناه زرقاوين وصوته جهورى .

ولما اشتد به الوجع ،طلب إلى الخادم أن يسجر التنور ، وكانت لديه صحف وكتب فأمر بها فأحرقت غير صحيفة واحده .

رسم « الحسن البصرى بحياته «صورة ممتازة للشخصية الزاهدة التى لايخالف قولها فعلها . آمن بدعوته وفنى فيها وعاش لها تسعين عاما إلا عاما واحدا ، كان عمر بن الخطاب مثله الأعلى . أستاذه حذيفة بن اليمان . والتقى بسبعين بدريا ورأى ثلاثمائة صحابى . قيل وكان كلامه يشبه كلام الرسول .

مالك

« بلغنى أنك تلبس الدقاق وتأكل الرقاق وتجلس على الوطىء . وتجعل على بابك حاجبا . وقد جلست مجلس العلم . وقد ضربت إليك المطى وارتحل الناس واتخذوك إماما ورضوا بقولك . فاتق الله يامالك وعليك بالتواضع » .

هذا ما كتبه يحيى بن يزيد النوفلى إلى مالك وقد رد عليه « .. أما ماذكرت لى أنى آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطىء ، فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله وقد قال تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وإنى لا أعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه » .

هذه لمحة تعطى مفتاح شخصية مالك . الصريح الذى لا يرائى ولا يداهن والذى يعترف بأنه يلبس ويأكل فى حدود ما أحل الله ، وإن كان يرى أن تركه خير من الدخول فيه .

عاش مالك فى المدينة ، فى نفس البيئة التى ظهر فيها الاسلام الأول فتلون مذهبه منذ اليوم الأول بالسنة الخالصة . فقد أحب رسول الله حبا ملك عليه جوانحه حتى روى عنه أنه كان لا يركب ناقة فيها ويقول أخشى أن تضع حافرها موضع قدم رسول الله . بل إن ورعه بلغ به أن كان يسير حافيا .

وقد نبغ فى الفقه والفتيا مبكراً ونصب نفسه للتدريس فى سن السابعة عشرة وشهد له سبعون شيخا من أهل العلم .

وطبقت شهرته الآفاق فسافر النـــاس من كل فج وكانوا يزدحمون على بابه ويقتتلون عليه من الزحام لطلب العلم .

وبلغ به تكريمه لحديث رسول الله أنه ما جلس يتحدث قبل أن يغتسل ويتطيب ويلبس أحسن لباسه وكان لا يرفع صوته عند حديث النبى .

يقول « أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله عند هذه الأساطين . فما أخذت عنهم شيئاً . وإن أحدهم لو أؤتمن على بيت مال لكان أمينا إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن » .

ومن قوله أن من قال لا أدرى فقد أفتى .

ألف موطأه وظل يراجعه ويهذبه نحوا من اربعين سنة . وكانت أحاديثه عشرة آلاف ثم هذبها وأنقص منها إلى أن أصبح نيفا وخمسمائة .

وأسلوبه فى تحقيق الأحاديث رائع يدل على الدقة البالغة يقول : لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ ممن سواهم : لا يؤخذ من سفيه ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته . ولا من كذاب يكذب فى أحاديث الناس . ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به .

وقد ورث عصارات علم المدينة كلها ، فتبلور فى دراساته وأفكاره علم عمر وعثمان وعبد الله بن عمر وعائشة وابن عباس وزيد بن ثابت .

ولم يعرف عن مالك أنه خرج من المدينة ، وظل مقيما بها طوال حياته حتى توفى فى سن السبعين

غير أن هذه الحياة الطويلة المباركة لم تخل من متاعب ومحن . فقـد كان حريصا على ألا يفرض عليه من الخلفاء رأى أو يجره مطمع إلى مغنم .

لقيه المنصور فى موسم الحج فقال له : إنه لم يبق عالم غيرى وغيرك . أما أنا فقد اشتغلت بالسياسة . فاما أنت فضع للناس كتابا فى السنة والفقه تجنب فيه رخص ابن عباس ، وتشديدات ابن عمر ، وشواذ ابن مسعود ووطئه توطيئا . قال فعلمنى كيفية التأليف ، غير أن مالك رفض أن يذعن له وعندما عاد فى الموسم التالى واجتمع به قال : إنى عزمت أن أمر بكتبك هذه التى وضعت — يعنى الموطأ — فتنسخ نسخا ثم ابعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين

نسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوها إلى غيرها ، من هذا العلم المحدث فانى رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم .

وقال له مالك : لاتفعل فان الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وعملوا به ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله وأن ردهم عما اعتقدوا شديد ، فدع الناس وماهم عليه » .

ولم يقف مالك صامتا أزاء ظلم الخلفاء . ودخل المعركة ضدهم بأسلوب العلم وفى محيطه الفقه دون أن يتعداه ، وكان يؤيد خروج محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه ابراهيم . فمضى يحدث الناس عن « طلاق المكره » وكان مما يقوله أنه لا يقع وأنه ليس على مستكره طلاق .

وقد نهاه المنصور أن يحدث به . ثم دس إليه من يسأله فحدث به على رؤوس الأشهاد فضربه بالسياط . ومدت يده حتى انخلعت كتفه قالوا : فما زال مالك بعد هذا الضرب فى رفعة من الناس ، وعلو من أمره حتى كأنما كانت تلك السياط حليا حلى بها .

ويروى أن المنصور بعث إليه فى موسم الحج واعتذر له وقال : لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم وإنى إخالك أمانا لهم من عذاب الله وسطوته . ولقد رفع الله بك عنهم وقعة عظيمة . وقد أمرت أن يؤتى بجعفر والى المدينة على قتب وأمرت بضيق مجلسه والمبالغة فى امتهانه ولا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه ، قال مالك : عافى الله أمير المؤمنين قد عفوت عنه لقرابته من رسول الله ثم منك .

وروى أن المنصور مضى يحدث مالكا فى حديث الموطا الذى رويناه قبلا وقصد بذلك إلى إرضائه وكسبه إلى صفة .

ولما أراد أن يذهب وضع رجال الخليفة الكسوة على منكبي مالك . قال فلما وضع الخصى الكسوة على منكبي انحنيت عنها كراهة احتمالها وتبرؤاً من ذلك .

وقال له المنصور فيما قال : إن أحداً لم يقرب مجلسه منى كما قرب مجلسك .

ولكن هذا كله لم يصرف مالكا عن إيمانه بفكرته ورأيه . وظل طوال حياته بعيداً عن محيط الخلفاء . متجرداً لحديث رسول الله . غاية فى الورع والأناقة وحسن الثياب .

فلما قيل له ما ترى فى البغاة — أى العصاة الخارجين على الخلفاء ، أيجوز قتالهم . قال إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز قيل . فان لم يكن مثله قال : دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ، ثم ينتقم الله من كليهما . فكان هذا من أسباب محنته .

أبو حنيفة

لمع اسم « أبو حنيفة » فى تاريخ أعلام الإسلام لا على أنه صاحب مذهب من المذاهب الأربعة . وإنما على أنه رجل حر الفكر . اتسعت مقاييسه العقلية للفهم دون أن يحصرها جمود أو يحدها موروث .

وقد كان ذلك سببا فى أن يظل موضع الحقد والكراهية والاضطهاد من أنداده وزملائه وذوى الرأى ، ولقى فى سبيل حرية رأية وفكره متاعب كثيرة ومع ذلك فقد ظل صلب العود ، لا يلين ولا ينكسر .

لم يكن يحسن الهزل أو يهوى المزاح ، وكان حاداً صارما ، تبدو علامات الجد والصرامة على محياة الضامر ، ووجهه النحيل .

وعرف بالثقة والثبات : حتى أنه بينما كان يلقى درسه فى المسجد ذات يوم إذا بثعبان غليظ يسقط فى حجره ، فهرب الناس وما زاد هو على أنه نفض الحية عن ثيابه وجلس مكانه .

وقد وقع مثل هذا عندما اقتحم الخوارج مسجد الكوفة فى إحدى غاراتهم إذ قال لمن حوله من التلاميذ : لا تبرحوا ، فجاء الخوارج حتى وقفوا عليه وقالوا له . . من أنتم ، قال أبو حنيفة : نحن مستجيرون . فتركوهم دون أن يصبهم سوء وقد أنقذهم بهذه اللمحة الفكرية من موت محقق .

قال أحد تلاميذه : أقمت عند أبى حنيفة خمس سنين . فما رأيت أطول منه صمتا . فاذا سئل عن الفقه تفتح وسال كالوادى .

وسمعت له دويا وجهارة فى الكلام . حتى قيل إنه لو حدث عن سارية المسجد أنها صنعت من ذهب لقام بحجته .

ولد بالكوفة سنة ٨٠ هجرية ومات ببغداد سنة ١٥٠ ولزم حماد إلى سن الأربعين ، فتلقى عليه وكان يجادله ويناقشه . يقول « لزمت حماداً لزوما ماأعلم أحداً لزم أحدا مثل ما لزمته . وكنت أكثر السؤال فربما تبرم منى . ويقول يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبي وضاق صدرى . حتى قال يوما : انزفتنى . وقد ظل أبو حنيفة يجله ويستغفر له فى الصلاة . ويقول ما صليت صــلاة منذ مات حماد وما مددت رجلى نحو داره وكان طويلا تعلوه سمرة . يحسن اختيار ملابسه كثير التعطر ، حسن الهيئة ، يعرف بالريح الطيب إذا أقبل وإذا خرج من منزله قبل أن تراه . بدأ حياته تاجراً مدققاً لا يقبل فى عمله ذمة من الشك يمزج بين عزة النفس والتواضع .

وقال الحسن بن زياد ما قبل أبو حنيفة لأحد من الأمراء هدية ولا جائزة وأرسل لشريكه متاعا فيه ثوب معيب يبيعه ويبين ما فيه من العيب فباعه ولم يفعل . فلما علم أبو حنيفة تصدق بثمن المتاع ، وكان ثلاثين ألف درهم . وفاصل شريكه .

وكان يجمع ربح تجارته فيشترى به لشيوخ المحدثين ثم يدفع الباقى إليهم ويقول أنفقوا ولا تحمدوا إلا الله فانى ما أعطيتكم من مالى شيئا ولكن من فضل الله يجريه على يدى .

وقد أثر أنه كان يعول أبا يوسف وأولاده عشرين سنة .

وعاش أبو حنيفة سبعين عاما قضاها بين الفقه والعبادة . كان بيته عريانا إلا من البوادى . وهو يوزع الدنانير آلافا مؤلفة . وكان مؤنته فى الشهر درهمان

وبلغ من ورعه: أنه كان له عند رجل دراهم فرؤى جالسا يوما فى الشمس عند بابه فقيل له لو تحولت إلى الظل . قال . كرهت أن أستظل بظل حائطه فيكون ذلك من المنفعة .

وفقدت شاة فى الكوفة فسأل عن أكثر ما تعيش فقيل له سبع سنين فترك

أكل لحم الشاة سبع سنين تورعا منه لاحتمال أن تبقى الشاة الحرام فيصادف أكل شيء منها فيظلم قلبه .

وأوفى لجاره الاسكافى الذى كان يغنى كل ليلة :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهن وســداد ثغر

وكان يسمعه هزيعا من الليل وهو قائم يصلى . فتفقد صوته ذات ليلة فسأل عنه فقيل أن العسس قد أخذه منذ ليال وهو محبوس فقصد إلى الوالى وأخرجه وركب أبو حنيفة والأسكاف يمشى وراءه ، فلما نزل قال يافتى أأضعناك قال لا بل حفظت ووعيت .

وجاءته امرأة تطلب منه ثوب خز ، فأخرجه لها فقالت له إنى امرأة ضعيفة وإنها أمانة فبعنى هذا الثوب بما يقوم عليك ، فقال خذيه بأربعة دراهم ، فقالت لا تسخر بى وأنا عجوز كبيرة ، فقال : إنى اشتريت ثوبين فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم . فبقى هذا الثوب على بأربعة .

تبرز شخصيته الجبارة فى موقفه من الفقه والفقهاء ، فقد أخذ عن رسول الله وأخذ عن صحابته ، فلما جاء دور التابعين ، قال لا آخذ عنهم ولا عن الذين من بعدهم ، وإذا كان التابعى رجلا فأنا رجل .

وقد أتاحت له عقلية الوثابة النفاذة ان يضع فتواه فى ستين ألف مسألة ، على طريقته المبتكرة « القياس » القائمة على الاجتهاد والاستنتاج . وكان أبو حنيفة من رجال الفقه والدعوة معا . فقد كان له مجلس وتلاميذ واتباع . تعلموا عليه وأقاموا مذهبه من بعده ، غير ان ما يبلغه من جلال القدر يتصل بموقفه فى القضاء ، فقد عرض عليه خليفة من ذوى الجبروت هو المنصور أن يوليه ولكنه أصر على الرفض وحلف عليه الخليفة أن يفعل ، فحلف ألا يفعل وقال إنى لا أصلح للقضاء .

ثم سجن وأعيد مرة أخرى وقال له المنصور: ترغب عما نحن فيه فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، أنا لا أصلح .

قال المنصور : كذبت .

قال أبو حنيفة : قد حكم على أمير المؤمنين أنى لا أصلح للقضاء. لأنه ينسبنى إلى الكذب . فان كنت كاذبا فلا أصلح . وإن كنت صادقا فقد أخبرت امير المؤمنين انى لا أصلح . ومضى يحدث الخليفة فيقول : لا تدع أماناتك إلا من يخاف الله . والله ما أنا مامون الرضا فكيف اكون ما هو الغضب . ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتنى أن تغرقنى فى الفرات لاخترت أن أغرق .

وداروا به فى الأسواق أياما كثيرة على أن يقبل القضاء. ولكن لم يلن وردوه إلى السجن . ثم أخرجوه إلى منزله ومنعوه من الفتيا والاتصال بالناس

وقيل ضرب مائه سوط حتى سال الدم من عقبيه. ثم امرله بثلاثين ألف درهم فلما وضعت بين يديه رفضها ،فقيل له لو تصدقت بهـــا ،وحاورته أمه فى أمره فقالت يا نعمان إن علما أفدت منه غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفرعنه فقال : يا أمة لو أردت الدنيا لوصلت اليها ، ولكنى أردت أن يعلم أنى صنت العلم ولم أعرض نفسى فيه للهلكه .

وكان يرى أن تولى الوظائف فى ظل هـــذا السلطان تضييع للدين وتعرض له للحظر .

وجهر أبو حنيفة ضد المنصور . وكان أميل إلى رأى محمد بن عبد الله النفس الزكية .

وأبرز ما فى مذهب أبى حنيفة تحريره للعقل واستعمال الرأى والقياس وكانت له قدرة فائقة فى الاستنباط .

قال أبو يوسف : ما خالفت أبا حنيفة فى شىء إلا رأيت مذهبه الذى ذهب إليه أنجى فى الآخرة .

وكان أسلوبه فى المناظرة غاية فى البراعة . قصد إليه رهط من أهل المدينة يحاجونه فى رأيه الذى يراه من أن قراءة المصلين خلف الإمام فى الصلاة تكفى عنها قراءة الإمام .

قال لا يمكننى من مناظرة الجميع فولوا أعلمكم فاختاروا لجداله أعلمهم قال : وهل إذا ناظرته لزمتكم الحجة لأنكم اخترتموه فجعلتم كلامه كلامكم قالوا بلى . قال هكذا نحن اخترنا الامام فقرائته قرائتنا وهو ينوب عنا .

وكان يرد الهدايا ولا يقبلها . أفتى مرة فتوى فى خلاف بين رجل كبير وزوجته . وقد جاءت وفق ما تريد الزوجة الموسرة فأرسلت إليه بهدية ضخمة فردها . وقال : قل لها إنى إنما ناضلت عن دينى .

ولما أدخل السجن رفض أن يأكل من طعامه . وبعث إلى ولده حماد يقول قد علمت أن قوتى فى الشهر درهمان من سويق . وقد حبسته عنى فعجله .

ومات فى السجن وصعدت روحه وهو ساجد .

الشافعى

يتمثل لى «الإمام الشافعى» حين أدرس سيرته ، عملاقا نحيلا ، ضامر الجسد ، مقبول الطلعة ، على الرغم مما قيل عن ملامحه . فليست الملامح فى الحق هى كل شىء . وقد تبدو غير منسقة ، ولكن يبرز من ورائها «روح» صاحبها غاية فى القبول والتقدير عند من يتصل به .

وأرى فيه مظهر الرجل الذى يصفه علم النفس بالانطوائى ، وكل الرجال الذين احتضنوا الأفكار والدعوات والمذاهب ، كانوا من هذا الصنف .

وقد عرف الشافعى بأنه يحب العزلة أحيانا ، ويلجأ إلى الصمت أحيانا ، وأنه يمكن لنفسه بذلك من التأمل والدرس والمراجعة وهى عدة الفقيه والداعية

وأتاح لى هذا الجسد النحل ، القدرة على السفر والرحلة واحتمالى مشقة الانتقال بين العراق ومكة واليمن ومصر .

ولد فى مكة ، ورحل إلى المدينة ، ثم سافر إلى اليمن ، ثم حمل إلى بغداد ، ثم عاد إلى مكة . وقصد إلى بغداد ثم إلى مصر ، حيث أقام فيها بقية حياته ، وقد أتاحت له هذه الرحلة ، وهذا التنقل المتصل ، خلال هذه المنطقة التى كانت تعد فى ذلك الوقت قلب العالم الإسلامى ، فرصة واسعة لدراسة طبائع الناس وأخلاقهم ومعرفة مصالحهم واتجاهاتهم ، وفهم الحياة ومشا كلها وقضاياها .

وقد أنضجت الرحلة ذهن الشافعى وتفكيره ، وأمدته بقوة سيكولوجية رائعة ، وأتاح له ذكاؤه المتقد ، وقدرته العقلية الجبارة ، مرونة ولباقة جديرين

بالتقدير . فهو قد غير مذهبه الذى وضع أصوله فى العراق ، حين استقر فى مصر ووضع بدلا منه مذهبه « الجديد » الذى ضمنة خلاصة تجاربة وملاحظاته ودراساته خلال تلك الفترة الطويلة التى قضاها متنقلا فى الأقطار الإسلامية . وكانت تجارب الأئمة والفقهاء الذين التقى بهم ، وقرأ لهم ، قد تبلورت فى نفسه واستقرت ، فاختار منها ما رآه صالحا مع البيئة الجديدة التى استقر فيها .

وإذا كان يقال إن أبا حنيفة قد شرع بروح مصر ، ويكاد الشافعى إلى ذلك أن يكون رابطة العقد بين فقهاء عصره ، فلقد ولد فى العام الذى مات فيه أبو حنيفة ، وتلقى على مالك فى المدينة ، فبهره بجودة حفظه وألمعية ذكائه ، ثم كان ابن حنبل من تلاميذه .

وقد التقى حين قدم العراق بأبى يوسف ووكيع ، وبذلك يمكن القول أن الشافعى قد أحاط بالفقه الإسلامى فى عهده واستوعبه استيعابا كان كفيلا بأن يجعله عميـــد الفقهاء ، وإمامهم فى عصره ، فهو الإمام الذى وضع الموازين والمقاييس ، وضبط الفقة ، بعد أن جادل الفقهاء وقارعهم وانتصر عليهم .

فإذا تركنا الحديث فى فقه الشافعى للفقهاء ، وذهبنا نتقصى « شخصيته » الانسانية وجدناه غاية فى القوة والسمو والحيوية ، وتعدد الجوانب وسعة الأفق وذلك بالاضافة إلى ما أثر عنه من براعة وذكاء .

يتحدث الذين عاصروه عنه ، أنه كان محببا إلى نفوس عارفيه ، وكان إشعاعه ولباقته وحسن حديثه يكسبه حب للناس وثقتهم . مما كان يزيد عدد أتباعه ومريدية يوما بعد يوم .

وأنه قد توافرت له صفات اساعية ، صاحب المذهب ، هذه الصفات التى تتمثل فيما أثر عنه من طول أناة وحلم ، وابتسام ثغر ، وإشراق وجه وبعد عن الغضب ، وتواضع لخفص جناح وسلامة صدر ، وصفح عمن يسىء إليه .

وبعد عن التعصب ، وإملاء الرأى . فقد كان يعذر مخالفيه فى الرأى ويقبل منهم .

ويرجع ذلك الى تلك الأصالة النفسية التى كونت «طابعه» طابع الزعامة ، فقد كان « رياضيا » تعلم الرماية وأغرم بها وأجادها ، وكان يرمى عشرة فى عشرة وقال عن نفسه « كانت همتى فى الرمى والعلم » .

وقد نقل اسلوب الرياضيين من ميدان الرمى ، الى حلبة الفقه ، فكان واسع الصدر ازاء معارضيه .

وآية قدرته فى الاقناع على طريقة الرياضيين ، اقناعه الرشيد ببراءته وهو يخوض بحراً من الدماء ، فقد صرع أمامه تسعة ، استلت السيوف اللامعة اعناقهم ، فلما جاء دوره اعطته عارضته القدرة على ان يناقش الرشيد ويقنعه وهو فى هذا الجو العاصف ، وازاء هذة الشخصية الجبارة .

لقد اتهم بالعمل ضد الرشيد وحمل مقيدا من اليمن مع عشرة من اصحابه فلما جيء بهم الى الرشيد ، وضع حداً لأجلهم ، اما هو فقد إقنع الخليفة . قال له وهو بين النطع والسيف .

« . يا امير المؤمنين ما تقول فى رجلين احدهما يرانى اخاه والآخر يرانى عبده . ايهما احب إلى ؟ قال الذى يراك اخاه ! قال : فذاك انت ياامير المؤمنين فلما وضع يده على الخيط . مضى بثبته بقوة ، قال : إنكم ولد العباس وهم ولد على ، ونحن بنو عبد المطلب ، فأنتم ولد العباس ترونـنا إخوتكم ، وهم يروننا عبيدهم .

... ونجا .

وقد بلغ به حب الرماية ان لم يكن جلال السن والامامه بمانع إياه عن ان يرمى .

وقالوا عنه إنه كان يقتصد في لباسه ، ولم تعرف له صغيرة ، وكان يجلس فى حلقته إذا صلى الصبح ، فيجيئه أهل « القرآن » فيسألونه ، فاذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل «الحديث» يسألونه ، فاذا ارتفعت الشمس قاموا . ثم تستوى الحلقة «للمناظرة» والمذاكرة ، فاذا ارتفع النهار تفرقوا ، ثم جاء أهل «العربية» والعروض والشعر والنحو حتى يأتى المساء . والشافعى جالس فى حلقته لا يضيق بالعلم ولا بالناس .

ولا عجب فقد كان الشافعى أديبا يتذوق الشعر ، ويقول أجوده ، ويقدر الجمال ويعجب به فى مختلف صوره النفسية والحسية ، بل لقد كاد أن يكون أديبا خالصا أو فنانا خالصا ، لولا أن أتيحت له فرصة دراسة الفقه ، فمضى فيه ، حتى برز وبلغ القمة .

وقد روى عن ذكائه وألمعيته وسرعة حفظه الكثير ، مما زاد فى قوة شخصيته أضف إلى ذلك ما روى من أنه إذا تكلم صوته أشبه بالصنج أو الجرس ، وكان إذا قرأ القرآن التف حوله الناس ، وعجوا بالبكاء . قال بعض أتباعه « كنا إذا أردنا أن نبكى قلنا قوموا إلى هذا الفتى المطلبى الذى يقرأ القرآن . فاذا أتينا استفتح القرآن فتساقط الناس بين يديه وكثر عجيجهم بالبكاء من حسن صوته »

ومن هنا جاءت قوته كداعية ، يستطيع أن يجمع الناس حوله وأن يحببهم إليه ، وتلك من الشمائل التى لا تتوافر للكثيرين ، وقديما كان الصوت الجميل وطلاقة اللسان من أدوات الداعية إلى الله .

ويرجع السر فى فصاحة «الشافعى» إلى أنه أقام بالبادية فلقن اللسان العربى.

وفى المدينة وصل إليه علم « مالك » كله ، فقد لزمه حتى مات ، وفى بغداد وصل إليه علم « أبو حنيفة » كله بعد أن حمله محمد بن الحسن . ومن ثم اجتمع له علمان : علم أهل الرأى ، وعلم أهل الحديث .

وقد وصل الشافعى بعلمه وثقافته إلى درجة المجتهدين وارتفع عن أن يكون من أتباع « مالك » أو تلامذته الذين يجرون فى حدود مذهبه ؛ فكان ذلك مصدر الخلاف بينه وبين المالكية فى مصر ، وقد لقى من ذلك عنتا شديدا .

وتوافرت للشافعى كل وسائل « الداعية » فقد أثر عنه أنه كان يذهب إلى الصباغين يتساءل عن معاملاتهم ، ويرتاد السوق يحدث أصحاب الحرف .

وبلغت به الثقة أن كان يعرف أن أهل مصر فرقتان : فرقه مالت إلى قول مالك وفرقة مالت إلى قول أبى حنيفة ، ولكنه كان يقول فى حماسة ظاهرة (أرجو أن أقدم إلى مصر فآتيهم بشىء أشغلهم به عن القولين جميعا) ..

وقد حدث ماتوقعه . غير أن الخلاف لم يلبث أن نشب بين أتباعه وأتباع مالك فلقيه فتيان بن أبى السمح المالكى فضربه أحدهم بمفتاح حديد فشجه . فلم يسعف بالعلاج فمات .

وقد مات فقيرا ، ولم يترك شيئا يذكر ، وكان قد أجهد نفسه فى الفترة التى قضاها فى مصر إجهاداً بلغ به غايته .

ابن حنبل

ما ذكرت «المحنة» فى تاريخ الإسلام، الاذكر بن حنبل وتلميذه فى الاجهاد وفى المحنة «ابن تيميه».

وما ذكر الاجتهاد والتجديد فى الإسلام الا وذكر احمد بن خليل. أستاذ ابن تيميه. ومرجع «الواهبين» وقدرتهم.

لقد امتدت المحنة بابن حنبل أربعة عشر عاما، طوالا، ما مر عليه يوم من أيامها دون أن يحس هذا الشيح الرهيب الذى كان يترصد له ليرده عن الحق الذى يعتقده وليجعله فى صفه ومن أتباعه. وابن حنبل على فقره وضعفه وصحته المتداعية، يصر، ويصر فى عنف. ويحتمل قسوة الظلمة ولكماتهم، ويستعذب سياطم على جلده الواهن، دون أن يتردد لحظة، أو يمر بخاطره أن يتراجع.

كان أحمد بن حنبل خطراً يتمثل للدولة العباسية وللمأمون والمعتصم والواثق فى إصراره على رأيه، فقد كان الناس ينتظرون رأيه ليؤمنو به وكان هو الورع الصادق

جاءه المروزى يوما وهو فى المحنة فقال: هؤلاء قدموك للضرب والله يقول ولا تقتلوا أنفسكم، قال يا مروزى: أخرج وانظر، قال: فخرجت ونظرت فى رجه دار الخليفة فرأيت خلقا كثيراً، والصحف والأقلام فى أيديهم فقلت أى شىء تعلمون، قالوا ننظر ما يقول احمد فنكتبه فرجع إليه وأخبره فقال أأضل هؤلاء؟ كلا. بل أموت ولا أضلهم. قال المروزى: رجل هانت عليه نفسه فى الله.

وظل ابن حنبل قويا على المحنه ، لا يتراجع ، فلما امتحن باقبال الدنيا عليه بعد ، احتفظ معدنه القوى ، بقوته . فلم يركن إلى الدنيا حين بسطت له ولم تعرفه من منهاج حياته وتقشفه وورعه .

بدا حياته متنقلا فى البلاد ويتلقى العلم والفقة والحديث . رحل إلى الكوفة والبصره ومكة والمدينة والشام واليمن . وتفقه بالشافعى حين قدم بغداد . ثم أصبح اماما مجتهداً .

وعدله مؤرخوه أنه ارتحل إلى البصره خمس مرات . وكان يقيم فيها أحيانا ستة أشهر ، كمارحل الحجاز خمس مرات .

وأحرزت كتبه يوم مات فكانت اثنى عشر حملا وعلالا . وكل ذلك يحفظه عن ظهر قلب .

قال ابنه عبد الله ابن احمد حنبل . قال لى أبى : خذ أى كتاب شئت من كتب وكيع فان شئت أن يسألنى عن الكلام حتى أخبرك عن الأستاذ او عن الأستاذ حتى اخبرك عن الكلام .

والذى نستطيع ان نستخلصه من هذا العلم لشخصه فكان مثلا للورع والزهد ونموذجا لشخصية الإنسان الكامل والعالم العامل .

يقول الشافعى خرجت من بغداد وما خلفت فيها افقه ولا اروع ولا اعلم من احمد بن حنبل ولم يجلس بن حنبل للفتيا والحديث إلا بعد سن الأربعين وقيل ان من كانوا يستمعون اليه خمسة آلاف يكتب منهم نحو خمسمائه .

وابرز ما فى حياته : حادث المحنه ، الذى رسم له صورةمن الهيبة والاجلال غايه فى القوة ، كتب لمذهبه الخـــلود . وانشئت مدرسة من مدارس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، استشرى خطرها من بعده وكانت عاملا فعالا فى توجيه الحياة الاجتماعية فى العراق .

واعاد بن حنبل بموقفه الرعيل الأول الذى احتمل فى سبيل الفكره فى وقت

كان المجتمع الإسلامى قد غلب عليه الشرف والصراع فى سبيل المطامع .

بدأت هذه المحنة حينما دعا المأمون الفقهاء ليقولوا مقالة فى خلق القرآن ، وكان قد اتخذ من المعتزلة وزرائه وصفوته وآمن معهم بأن القرآن مخلوق محدث .

ولم يلبث المأمون أن عمم هذه الدعوة وأخذ يطالب الناس أن يقولوا بخلق ويحملهم على ذلك حملا قاهرا . وفى سنة ٢١٨ أرسل كتبه إلى الأقاليم والأمصار يطلب امتحان الفقهاء والمحدثين فى القول بأن القرآن مخلوق .

وفى بغداد دعا إسحق بن ابراهيم إلى تنفيذ رغبة المأمون فأرسل إلى المحدثين والفقهاء والمفتين ومنهم أحمد بن حنبل فأبلغهم رغبة الخليفة . وهددهم بأنهم سينالوا العقوبة الصارمة إن لم يقروا بما طلب . وتهادى الفقهاء واستسلموا . وقبلوا رأى المأمون . وقالوا به . إلا أربعة منهم أحمد بن حنبل ، قالوا لا . ورفضوا أن يذعنوا لرأى المامون فى خلق القرآن .

وشدوا الأربعة محمد نوح والقواريرى وسجاده وابن حنبل ، بالوثاق وكبلوا بالحديد وأودعوا السجن مصفدين فى الأغلال . ولم يصبح الصباح حتى استجاب سجاده وفى اليوم التالى أجاب القواريرى .

وحمل ابن حنبل ، وابن نوح إلى المأمون فى طرطوس فاستشهد ابن نوح فى الطريق وانكشف الموقف عن الصامد الصابر : أحمد بن حنبل .

ولكن الموقف تحول قليلا فقد مات المأمون قبل أن يصلوا إليه . مات بعد أن أوصى أخاه « المعتصم » بالاستمساك بمذهبه ، ودعوة الناس إليه . ومضى المعتصم ياخذ الناس بالشدة واتسع نطاق المحنة وحملت سنواته إلى الناس البلاء والشقاء بهذه الفتنة .

وأعيد « أحمد بن حنبل » إلى السجن فى بغداد ثم حمل إلى المعتصم ومضى يناقشه هو وأحمد بن أبى دواد قاضى القضاه ، وهو مثقل بقيوده ، ولما لم يصلا

منه إلى شيء ، ردوه إلى السجن وأعادوه مرة أخرى وثالثة ثم أعادوه للمناظرة ورصدوا له العبيد يحملون السيوف والسياط واحاطوه بالارهاب العنيف ، ولكنة اصر ولم يبلغوا منه شيئا واصر على الانكار .

ومضت السياط تسفع جسده النحيل فى عنف وفى قسوة ، حتى أغمى عليه .

وظلوا يضربوه المرة بعد الأخرى وينخس بالسيف حتى لا يحس من الإغماء. وتكرر ذلك معه فى محبسه نحواً من ثمانية وعشرين شهراً . ثم أطلق سراحه ، فأقام فى بيته . وحيل بينه وبين الإفتاء .

وظل طوال حكم المعتصم معتكفا عن الدرس .

ثم تولى الواثق فأعاد المحنة على أحمد . ولكنه لم يتبادله بالسوط . وأعاد فلما لم يجد منه قبولا . وابن حنبل ما يزال فى إصراده عزيزا ، فطلب إليه أن يخرج وقال له لا تساكنى بارض ولا يجتمع إليك أحد . فخرج مهاجراً وظل يتنقل مختفيا ، مغضوباً عليه من خليفة المسلمين ، وعاد إلى بغداد فاختفى فى منزله ، لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها وانقطع عن الدرس أكثر من خمس سنوات حتى مات الواثق .

وهنا رفعت المحنة بعد أربعة عشر عاما . صهر فيها ابن حنبل وقال « لا » وأصر عليها . ولم ترهبه الرهبة . ولما يأخذه الإغراء . ولم يصطنع التقية ، ولم ينزل عن رأيه . احتملها صابراً راضيا . لم يضق بها ولم يتعجلها ، وكسب بذلك منزلة ضخمة فى نظر الناس . وزاده ذلك مهابة وجلالا . وزاد فكرته ذيوعاً وانتشاراً .

وجاء المتوكل فارتضى مذهب ابن حنبل واضطهد الشيعة والمعتزلة . وانتقل الأمر من النقيض إلى النقيض . وأصبح أحمد بن حنبل أبرز رجل فى الدولة .

ولكنه بالرغم من هذا النصر الباهر ، لم يذهب عنه وقاره ولا زهادته وعاش فقيرا مكدوداً محدوداً وظل يعمل ولا يقبل العطاء . ورفض عطاء المتوكل الذى عرض عليه المال الكثير وأصر على الامتناع . ولم يقبل أن يأخذه ويتصدق به .

ولم يجنح فى أيام محنته عن الاعتدال ، وكان يحث على الطاعة ولزوم الجماعة وينهى عن الخروج .

وكان يحمل حبله على عاتقه ويذهب فيجمع بقايا الزرع الذى يترك فى الأرض مباحا .

وعرف بالصبر والجلد وقوة الاحتمال . فكان يجوب الفيافى ويقطع البلاد دون ان يضيق بالسفر ومتاعبه .

البخارى

لكم كان جديراً أن يكتب عن «حياة» البخارى المجلدات الطوال . هذا السجل المحقق الذى يقف فى صف واحد مع كبار رجال الفكر العالمى الذين وضعوا قواعد البحث العلمى المجرد وهو لا يقبل فى هـذا الميدان عن «ديكارت» .

ويمتد كتابه « الصحيح » عبر حياته كلها منذ شبابه الباكر إلى آخر يوم فى حياته . فكأنما قد عرف طريقا مبتكراً إلى هدفه وعاش له .

يقول « ألهمت الحديث فى المكتب ولى عشر سنين وأقل » وناقش شيخه « الداخلى » وعارضه وسنه احدى عشر سنة .

وسمع عنه حبه الشيوخ فى سن السابعة عشرة ، وحفظ كتب ابن المبارك ووكيع .

ثم جال جولة طويلة فى العالم الاسلامى فى سبيل طلب العلم فزار بلخ ، مرو ونيسا بور ، وبغداد ، العصرة مكة . المدينة ، واسط ، دمشق ، قيسارية ، عسقلان ، حمص ، مصر .

وتردد على مصر والشام والجزيرة مرتين وزار البصرة أربع مرات وأقام بالحجاز ست أعوام .

واستغرقت رحلاته هذه ستة عشر عاماً . كتب فيها عن ألف وثمانين نفساً ليس فيهم إلا صاحب حديث جمع فى رحلته ست مائة ألف حديث . ولم يضع إلا اغتسل وصلى ركعتين . ونظم تراجمه بين قبر النبى ومنبره ، وكان يصلى ركعتين لكل ترجمة . .

وقد أعانه على هذا الجهد الضخم طبيعة قوية صلبة تحتمل الجهد ، وذاكرة حافظة قوية لاقطة وكان إلى ذلك غاية فى الحياء والشجاعة والسخاء والورع والزهد فى الدنيا كما عرف بسيلان الذهب .

ويقول « إنى أرجو أن ألقى ربى لا يحاسبنى إنى اغتبت أحداً »

وقد شغل نفسه بالحديث عما عداه من العلم وعما عداه من متاع الحياة حتى روى عنه أنه منذ ولد إلى أن مات ما اشترى شيئاً ولا باعه ، حتى الحبر والطاغه الذى يحتاجه ، كان يكلف غيره بشرائه .

وروى أصحابه ممن عاشره انه كان يقوم بالليل بضع عشرة مرة فيوقد السراج ويخرج أحاديث ، فيعلم عليها

ويروى عمر بن حفص الأشقر أنهم فقدوه أياماً من كتابة الحديث. قال : فطلبناه فوجدناه فى بيت وهو عريان . وقد نفد ما عنده ولم يبق معه شىء . فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوبا وكسوناه ثم اندفع معنا فى كتابة الحديث .

وكان بارعاً فى اختيار الأحاديث وتمحيصها . وله معرفة بالرجال . أميناً فى إيراد المتون . وقد لقى الحفاظ وجالس المحدثين فسمع منهم وأخذ عنهم ومضى يقارن بين المتشابه حتى رد الأشياء إلى مصادرها . وقد روى عنه قوله قل اسم فى التاريخ إلا وله عندى قصة . وبالرغم من مهارته فى الحديث وتعرف الرجال فقد كان فقهياً ، وقد روى عن ذاكرته أحاديث قد تعد من المبالغات ولكنها تدل على أنه كان غاية فى الذكاء

روى أنه دخل البصرة فاستمع ستة عشر يوما على مشاع البصرة والطلبة يكتبون وهو لا يكتب حتى عابوا عليه ما يضيع

فلما أكثروا عليه قال : اخرجوا ما كتبتم فى تلك الأيام فاذا به خمسة عشر ألف حديث فقرأها كلها عن ظهر قلب .

وقيل كان أهل المعرفة فى البصرة يعدون خلفه وهو فى الطريق حتى يجلسونه كرها فيستملى عليه الألوف .

وقد بلغ اسمه كل مبلغ ، ورفع ذكره ، فلم يكن يدخل مصراً أو حاضرة حتى يتنادى الناس بمقدمه ويجلسون إليه حتى يبلغ مجلسه عشرين ألفا أو يزيدون .

ولم يشغله هذا عن أن يؤدى واجبه للاسلام ، فقد كان مجاهدا يتمنى دائماً حمل السلاح فى سبيل الله .

روى محمد بن أبى حاتم الوراق أنه كان مع البخارى فى ثغر حربى اسمه «فربر» فكان البخارى يقضى الليل فى التيقظ لجمع الحديث وصلاة السحر . فقلت له : انك تحمل على نفسك كل هذا ولا توقظنى .

قال البخارى : أنت شاب فلا أحب أن أفسد عليك نومك .

وفى يوم كان البخارى قد تعب فى تصنيف كتاب التفسير فاستلقى على قفاه فقلت له : سمعتك تقول يوما : إنى ما أتيت شيئاً بغير علم قط منذ عقلت فأى علم فى هذا الاستلقاء .

قال أتعبنا أنفسنا هذا اليوم . وهذا ثغر من الثغور خفت أن يحدث حدث من أمر العدو فأحببت أن أستريح وآخذ أهبة ذلك فان عاقصنا كان بنا حراك

يقول فى مقدمة كتابه « الجامع الصحيح » أخرجت هذا من نحو ستمائة ألف حديث وصنفته فى ست عشر سنة وجعلته حجة بينى وبين الله .

وقد رفض « البخارى » أن يكون تابعا لأمير أو وال . أرسل اليه خالد

ابن محمد الزهلى نائب الخلافة العباسية يطلب اليه أن يأتيه بالحديث ويحدثهم به فى قصره . فامتنع البخارى من ذلك وقال لرسوله قل له : أنا لا أزول العلم لا أحمله على أبواب السلاطين ، فان كانت له حاجة إلى شىء منه فليحضر إلى مسجدى أو إلى دارى . فان لم يعجبك هـذا فأنت سلطان فامنعنى من المجلس ليكون لى عذر عند الله يوم القيامه ، إننى لا أكتم العلم .

فأمره الوالى بالخروج فخرج من بخارى وذهب إلى سمرقند ، فلما كان على بعد فرسخين منها بلغه أن فتنة وقعت بين قوم يريدون دخوله وقوم يكرهونه فانحرف عنهم إلى منزل بعض أهله . حتى جاء أهل سمرقند يلتمسونه .

وقد ظل « البخارى » يقاس من العداوت والخصومات الشىء الكثير ، حتى روى أنه عند ماقدم بغداد تآمر أصحاب الحديث عليه واجتمعوا له وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها ، وجعلوا متن هذا الأسناد لأسناد آخر وأسناد هذا المتن لمتن آخر. ودفعوها إلى عشرة رجال ، كل رجل عشرة أحاديث وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوها على البخارى . وأخذوا منه موعـــد المجلس فحضر ، فلما اطمأن المجلس بأهله ، انتدب اليه رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث. فقال البخارى لا أعرفه ، فسأله عن آخر فقال لا أعرفه فما زال يلقى عليه واحداً بعد واحد ، حتى فرغ من عشرته والبخارى يقول لا أعرفه. فكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون من كان منهم غير ذلك يقضى على البخارى بالعجز والتقصير وقلة الفهم .

ثم انتدب الرجل الثانى ففعل معه ما فعل الأول . وانتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من الأحاديث المقلوبة . والبخارى لا يزيد على قوله : لا أعرف .

فلما عـــلم البخارى أنهم فرغوا التفت إلى الأول منهم فقال : أما حديثك الأول فهو كذا وحديثك الثانى فهو كذا والثالث والرابع حتى أتم العشرة

فرد كل متن إلى أسناده ، وكل أسناد إلى متنه وفعل بالآخرين مثل ذلك ورد مقوية الأحاديث كلها إلى أسانيدها . وأسانيدها إلى متونها .

وهكذا تغلب إيمان البخارى وذكائه على محاولة للتآمر عليه . وقد ذاع ذلك فى كل مكان حتى كان البخارى يقابل عند دخول الأمصار مقابله تجل عن الوصف وكان العلماء يخشعون فى مجلسه كأنما يظلهم الجبل قال ابن النفر :دخلت البصره والشام والحجاز والكوفه ورأيت علمائها فكلما جرى ذكر البخارى فضلوه على أنفسهم.وقد وطن له نبوغه دن صغره نفوس أهل الكبر حتى لقبوه الكبش النطاح .

وهكذا حق أن يطلق على البخارى « أمير المؤمنين فى الحديث » .

ابن خلدون

شخصيته تحس حين تتصل بها عن قريب وهج العبقرية ، وقد احتسب فى أكثر من قائمة ، وعد فى أكثر من ثبت . فهو واحد من العباقرة العشرة فى الاسلام . البيرونى (العلوم) والغزالى (الكلام) وابن خلدون (التاريخ) وجلال الرومى (التصوف) وابن سينا (الطب) وابن رشـــد (الفلسفة) والفردوسى (الشعر) .

وهو أحد المطوفين فى الأرض «الغزالى والشافعى والبخارى وابن خلدون» وهو فى حساب الفلاسفة فيلسوف والمؤرخين مؤرخ والبلغاء كاتب وهو واحد من الذين ضاقت بهم نفوسهم . وأحسوا بأنهم لم يصلوا إلى المنزلة التى هم أهل لها ، أو التى يستحقونها فعاش حياته شريداً هائماً على وجهه . يلمع أسمه فى أنحاء المملكة الإسلامية لمعان النجم . ولكنه يرى نفسه دون ما يريد .

وقد عاش حياته مهاجرا ينتقل من مكان إلى مكان . وحينما يذهب يلحق به حساده ويكيد له خصومه . وامتحن بأهله الذين هاجروا ليلحقوا به فى مصر فغرقوا . ومات غريبا فى القاهرة بعد سياح من أشبيليه إلى المغرب إلى الحجاز والشام .

ورأى خلال ذلك من الأهوال : رأى تيمور المغولى يجتاح الشام وتيدو الأسبانى يتاهب للوثوب إلى غرناطة آخر حصن للاسلام فى الأندلس .

وبعد أن التقى بعشرات الملوك والسلاطين وعمل معهم وفهم من عرض عليه الإقامة وطلب منه أن يريح نفسه من العناء .

ولكن النفس المتطلعة إلى المجد لا تركن إلى الهوان . ولا ترضى بالاقامة على الذل .

تنقل فى بلاد المغرب ، ولمع اسمه وقربه الملوك والأمراء . وكان موضع رعاية السلطان أبو عنان المرينى صاحب تلمسان ، فأحقد أقرانه فسعوا بينه وبين الأمراء بالوشاية واتهموه بالتآمر على حياة السلطان فاعتقل وظل سجينا إلى أن مات أبو عنان .

ثم عمل مع السلطان أبا سالم المرينى ، وكان كاتب سره . وما لبثت الوشايات أن أفسدت ما بينه وبين الأمير ، فانقبض عنه ابن خلدون

وسافر ابن خلدون إلى الأندلس . وقصد أبوعبد الله سلطان غرناطة فأكرمه وقربه ، ثم رحل إلى قشتاله ، وعاد إلى غرناطة حيث أقطعه أبى عبد الله بلدا وصيره من الأمراء .

ولكن ابن خلدون لم يستقر ، وسافر إلى بجاية . حيث قلده سلطانها أعمال دولته وأسند إليه رئاسة الحكومة . فظل فى خدمته الى أن اجتاح بجاية أمير قسنطينة الذى استبقى ابن خلدون وأكرمه .

وتنقل ابن خلدون الى تلمسان ، وخرج من الأندلس الى المغرب ، فقصد الى بجاية وغادرها الى تلمسان .

وهناك استقر أربع سنوات وضع خلالها مقدمته .

ولكن نزعة الرجال دفعته الى السفر إلى مسقط رأسه تونس حيث قضى وقتا فى رعاية سلطانها . ولكن الوشايات مضت تطارده .

فنزح الى مصر . حيث درس فى الأزهر . وقرأ الفقه على مذهب مالك . واتصل بالسلطان برقوق الذى أكرمه وولاه قضاء المالكية .

وسافر الى الحجاز لأداء فريضة الحج . ولما عاد الى مصر شغل نفسه بكتابة تاريخه المعروف حتى أتمه . وقد قضى فى تأليفه ووضعه خمسة عشر عاما .

وفى سن السابعة والخمسين سنة ٨٠٨ قضى ابن خلدون بعد حياة حافله مضطربة ، فيها عواصف وأنواء .

* * *

لم يستقر ابن خلدون فى حياته . عاش خمسين عاما متنقلا لا يستقر ، وما أن يصل الى أو ملك سلطان حتى تثور الزوابع من حوله فينصرف حتى طاف المغرب والأندلس . ومصر والحجاز .

عرف بالبراعة والعبقرية . فى الفقه والعلم والقضاء والتدريس والتاريخ . ولكنه امتحن بالخصوم والأعداء فى كل مكان .

وقد احتك فى خلال حياته الطويلة بالكثير من السلاطين والملوك والأمراء وأفاد من هذا كله تلك الخبرة الضخمة التى برزت واضحة فى مقدمته حين وضع للتاريخ العربى هذا اللون الجديد .

وكما وضع الشافعى أصول الفقه وضع ابن خلدون أصول التاريخ .

لقد رسمت «مقدمة ابن خلدون» صورة واضحة لتلك العقلية النادرة فى فهم التاريخ وأسرار الأمم ونظم العمران وطبيعة الأقاليم ومظاهر البداوة والحضارة ومعالم الأنساب والملك والسياسة » .

وكما امتحن بالناس . امتحن فى أهله ففرقت أسرته وهى فى طريقها

إلى مصر وماتت زوجته وأولاده . وكان هذا عاملا بالغ الأثر فى نفسيته الطموحة الراغبة فى العـــلا . فاندفع الى لون من الزهد وآثر العزلة ، وقطعت به أسباب الأمل .

وقد وقع هذا له وهو فى سن الستين ، وحاول أن يخفف من أثره النفسى فسافر إلى الحجاز وعاد لينكب فى عنف على كتابه « تاريخ العبر وديوان المبدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » ويدفن همومه فى هذا العمل الشاق الذى كان قد بدأه من قبل وشغلته الأحداث والمطامع النفسية عن اتمامه فأمضى ثمانية أعوام كاملة ، وقد انصرف له بكليته وهجر الناس ومجالس الأمراء حتى أتمه . وكان إتمامه نذيراً بانتهاء حياته فانه لم يلبث أن ودع الحياة

. . .

أمضى ابن خلدون فى مصر ٢٣ عاما وصل خلالها الى ذوى المناصب فقد تولى منصب قاضى)القضاء ولعل هذا كان من العوامل التى حملته على البقاء فى مصر وعدم العودة الى المغرب مرة أخرى . يظهر هـــذا فى ارساله فى طلب أهله فلما وقعت هذه المأساة كان ابن خلدون قد قطع كل ما بينه وبين المغرب .

وقد وصفه لسان الدين الخطيب بأنه بعيد عن التأنى وأن هذا الخلق كان سبب نكبته وتحامل رجال الدين عليه .

. . .

تقلب ابن خلدون فى قصور تونس وبجاية وتلمسان وفارس . وكان

خلال ذلك فتى لا يتجاوز الثلاثين. ثم سافر الى الأندلس واتصل بملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب وزار قشتاله وأشبيلة . ثم عاد إلى المغرب وعزم على السفر الى المشرق .

وقد آثر العزلة مرتين فى حياته . عندما عاد من الأندلس . وفى آخر حياته بمصر أما الأولى فجاءت على أثر الانقلاب الذى أودى بالأمير الأندلسى الذى كان يعمل معه . وكان ابن خلدون قد كره السياسة وأزمع أن يتركها وأن يعكف على التأليف والدرس . وفى هذه الفترة بدأ كتابة مقدمته . ولاشك كان لاتصالاته هذه مدى ربع قرن أبعد الأثر فى هذه الرصانة التى عرفت بها المقدمة فى فهم أمور السياسة والكشف عن دقائق المسائل التاريخية . فقد خبر القبائل والقصور والملوك والدول

ومن العجب أن يكتب ابن خلدون هذه المقدمة الضافية فى خمسة شهور .

التقى ابن خلدون فى حياته لشخصيات متعددة . كان من أبرزها ملك التتار تيمورلنك تحت أسوار دمشق . وقد دارت بينهما أحاديث مختلفة فى فلسفة الحرب والسياسة .

وكانت حياة ابن خلدون كلها صراع . ومغامرة وكان موضع الحسد والحقد والكيد الذى كان يؤجج عليه نار الفتنة ويدفعه الى أن يمضى فى أرض الله الواسعة .

ولكن ابن خلدون على ما تكشف عليه ترجمة حياته التى كتبها تعطى صورة لشخصية ممتازة مليئة بالزهو والكبرياء . والرغبة فى العلاء . فهو

رجل سياسى ولا شك قبل أن يكون مؤرخا . فيه طابع الساسة كاملا . بخيره وشره . فيه الجرأة . وفيه الطموح . وفيـــه الى ذلك كله الذكاء والدهاء وبعد النظر .

وفى الجانب الأدبى منه ترى أسلوبا رصينا وبراعة عرض . وبلاغة بيان . وقدرة على التعمق فى الأحداث وصراحة وحرية . كانت لأحلها مقدمته من أعظم الاثار فى فلسفة التاريخ .

الغــــزالى

« ... وكان قد ظهر عندى أنه لامطمع فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة إلى الله تعالى . وأن ذلك لا يتم إلا بالاعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعوائق ، ثم لاحظت أحوالى . فإذا أنا منغمس فى العلائق ، وقد أحدقت بى من جميع الجــوانب ، ولاحظت أعمالى وأحسنها التدريس والتعليم ، فإذا أنا فيها مقبل على عــلوم غير مهمة أولا نافعة فى طريق الآخرة ، ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت أننى على شفا جرف هاو، وأنى قد أشرفت على النار . إن لم أشتغل بتلافى الأحوال ، فلم أزل أفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الإختيار ، مصمم العزم على الخروج من بغــداد ، ومفارق تلك الأحوال يوما ، وأجل العزم يوما ، وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى ، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة ، إلا ويحمل طلبها جند الشهوة حملة فتغيرها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى الرحيل الرحيل . فلم يبق من العمر إلا القليل، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العــلم والعمل رياء وتخييل ، فإن لم تستعد من الآن للآخرة فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع الآن هــذى العلائق فمتى تنقطع ؟ فبعد ذلك ينبعث العزم على الهرب والفــرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، وإياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال ، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشان المظلوم

الخالى من التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافى من منازعة الخصوم ربما لا يتيسر لك المعاودة ، فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من ستة أشهر ، آخرها رجب سنة ثمان وثمانين واربعمائة ، وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى حد الاضطرار إذ قفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدأ تطييبا لقلوب المختلفين الى ، فكان لا ينطلق لسانى بكلمة ولا أستطيعها البتة ، ثم أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب بطلت معه قوة الهضم ، وقرب الطعام والشراب ، فكان لا يستساغ لى شربة ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدى ذلك إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم فى العلاج ، وقالوا هذا أمر نزل بالقلب، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إلى العلاج

هذا هو أعظم حادث « على وجه التحقيق ، فى حياة الإمام الغزالى ، تحولت به نفسه وعقله وحياته من وضع إلى وضع ، وهذه الصفحة من مذكراته تكشف عن طبيعته وكيف أخذت تنتقل حثيثا من الفلسفة إلى التصوف ، إذ خلع « الغزالى » على أثر ذلك رداءه الذى اتشح به أربعين سنة ، وترك العلم ، وهجر بغداد ، وساح فى الأرض حتى بلغ منارة مسجد دمشق ، وبينها وبين الصخرة فى بيت المقدس وضع أعظم آثاره ، وأجل مؤلفاته : « احياء علوم الدين » الذى كان يعيد الأثر فى تاريخ الفكرة الإسلامية

واستطاع الغزالى بكتابه « الأحياء » أن يفصل فى القضية التى ظلت كثر من ثلاثة قرون موضع الخلاف بين أنصار الفقه وأنصار التصوف

هذه القضية التى وصل فيها الخلاف أشده وأقصاه ، واتسعت فيها شقة الجدل وبلغت المساجلات إلى أبعد حدود الهجاء والصراع

وكان كل من الفقهاء والمتصوفة يرى نفسه على الحق ، وقف الفقهاء ينقضون آراء الصوفية ويرونها زيفا فى الدين ، وقال الصوفية أن الفقهاء لا يؤمنون إلا بظاهر الشرع

ثم جاء الغزالى لحسم المسألة ، وفصل فى القضية ، وقضى بأن الفقه والتصوف ليسا إلا شقين للاسلام ، وأنهما لا يصطدمان ولا يختلفان ، وكان كتاب « الأحياء » صورة واضحة لهذا الفهم الجديد

* * *

مفتاح حياة الأمام الغزالى هو البحث عن « الحقيقة » ، وقد كلفه هذا مشقة وأهوالا كبارا ، فقد قضى زهرة عمره باحثا منقبا ، مسافراً متنقلا ، حتى وصل أخيراً

حاول الوصول إلى « الحقيقة » عن طريق العقل والمنطق والفلسفة ، ثم حاول ذلك عن طريق العلم والتصوف والروحية ، وظل بين موجات مشقة العاصفة ، ولمعات اليقين الصادقة ، خلال فترة شبابه الحاد القوى

وكان فى قلب بغداد ، وفى صدر المدرسة النظامية ، يتألق كعالم ، ولكنه كان فى صميم نفسه يقاسى موجة عاصفة ، وكان المنطق والعلم يضيقان بما يريد من فهم « كنه » الحياة

وإذا به فجأة ، وعلى غير انتظار ، ينقطع عن الدرس ، وينعقد لسانه عن الكلام ، وينصرف عن الطعام ، ويدخل فى مرحلة عجيبة من الغيبوبة والتهويم

ولم يجد مخرجا من هذا الحرج إلا أن يذهب إلى الحجاز ، ويعتزل التدريس ، ويدخل الخلوة ، ويعكف على الرياضة الروحية

وكانت هذه « الأزمة » ولا شك ، قمة حياته العلمية التى أوشكت على الانتهاء ، ليبدأ حياة جديدة تقوم على الوجدان والروحية والتصوف

ثم ترك الحجاز الى دمشق , واعتكف فى منارة الجامع الأموى ، ولبس الثياب الخشنة ، وزهد فى الطعام والشراب ، فلم يكن يأخذ منهما إلا القليل الذى يعيش به

وانتقل من دمشق إلى بيت المقدس ، واستكن فى المنارة الغربية من المسجد الأقصى ، وقضى بها وقتا طويلا كتب فيه فصول كتابه الضخم « احياء علوم الدين »

ثم رحل إلى الاسكندرية ، فأمضى بها فترة من الزمان ، وفى هذه الرحلة الطويلة تبلورت نفس الغزالى وتفتحت لفهم الحقيقة ، وانتهت الأزمة النفسية الضخمة التى ألمت بهذه الشخصية الكبرى

ويبدو الامام الغزالى خلال هذه الأزمة بصورة الرجل الذى يستهدف الوضوح ، ويتجه إلى النور ، والذى يصر على أن يصل إلى ما يريد دون ن يعبأ أو يضيق بما يكلفه ذلك من أهوال

وفى سبيل الغاية التى وطن عليها نفسه هاجر وانتقل وطوف ،وقضى أكثر من عشر سنوات فى ذلك الطواف

خرج وهو فى قمة الشك والاضطراب وانعقاد اللسان ، وعاد وقد انجابت عنه الأزمة ، وتفتح له طريق اليقين

وكسب التراث الإسلامى من أزمة الغزالى هــذا الكتاب القيم « الأحياء » الذى يعد الآن ، وبحق ، منار الراغبين فى العلم والفقه والتصوف جميعا

وقد هداه طول البحث إلى حل أزمتين : أزمة نفسه ، وأزمة الفكرة

الاسلامية ، فهو حين قضى على الصراع النفسى الداخلى فى أعماقه قضى أيضا على الخلاف الذى نشب طويلا بين الصوفية والفقهاء ، وامتد زمنا واتسعت معه شقة الجدال والسجال، فخرج بين الصوفية والفقه فى أسلوب بارع ، وطريقة واضحة

وإن كان قد فات الغزالى أن يجمع الأنصار ، وأن يكون الدعاة وهو حى ، فقد ظلت آثاره تجمع الأنصار طوال القرون المتوالية ، وتظل دستوراً للدعاة إلى الاسلام فى كل مكان

وأبرز ما فى حياة الامام الغزالى « السفر » والترحال ، وهو عند الباحثين النفسيين دليل الحيوية والقوة الروحية ، لا سيما فى ذلك العصر الذى كان الانتقال فيه غاية فى العسر ، وقطعة من العذاب

فقد ولد بطوس ، وهاجر الى جرجان فى مطلع شبابه ، حيث اتصل بالعلماء ، ثم عاد كرة أخرى إلى طوس وانقطع للعلم ، ثم ضاق بها ، فرحل إلى نيسابور ، واتصل بالامام الجوينى ، فأخذ عنه مذاهب الجدل والأصول والمنطق

ومضى يدرس إلى أن قضى أستاذه ، ففارق نيسابور قافلا إلى بغداد واتصل فى بغداد بنظام الملك الذى ولاه التدريس فى « النظامية » ، وتألق نجم الغزالى فى بغداد ، واتسعت حلقات دروسه

ثم جاءت القارعة وتطورت حياته على ما وصفنا

وكان الغزالى حربا علمية ، غاية فى الصرامة والقوة والعنف ، على باطنية ، فقد مزق آراءهم ، وسفه أفكارهم

ولا يشك الباحث الذى يقرأ فصوله فى السفر ، والزواج ، والمعاملة

والصداقة ، أنه مجرب خبر الحياة ، واتصل بها أوثق اتصال ، هذا إلى أنه رفع التصوف بالقواعد التى قعدها له إلى القمة ، ونقاه من الأخطاء التى تجمعت حوله ، بل أنك لا تجانب الحق حين تقول أن الغزالى لم يدع مادة من علوم زمانه دون أن يحيط بها أو يتناولها بالدرس والنقد ، وقد تبلورت علومه فى كتاب « الأحياء » بالذات

ولا يزال « الغزالى » علما من أعلام الفكر الاسلامى ، كما أنه سيظل رمزاً للقوة النفسية التى تتمثل فى الرجل الذى آمن بهدفه ، فأمضى حياته سائحا فى سبيل الوصول إليه

يقول رينان « ان الغزالى هو الوحيد من الفلاسفة المسلمين الذى انتهج لنفسه طريقا خاصا فى التفكير » آمن الغزالى بضرورة الرجوع الى القلب ودراسة الحقائق الالهية بالذوق والكشف ، بعد تصفية النفس بالعبادات والرياضيات الصوفية محاولا اخضاع العلم والعقل للوحى والدين ولكن الغزالى لم يصل الى هذه المرحلة إلا بعد أن مر بمراحل مجهدة وصفها فى كتابه المنقذ من الضلال « لم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ وقد أنافت السن الآن على الخمسين اقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته ، خوض الجسور ، لا خوض الجبان والحذور . أتوغل فى كل مظلمة وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم فى كل ورطة ، وأتفحص عقيدة كل فرقة ، وأكشف أسرار مذهب كل طائفة . لأميز بين محق ومبطل ، ومستن ومبتدع ، لاأغادر باطنيـاً إلا وأحب أن اطلع على بطانته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهاره ، ولا فيلسوفا إلا وأقصد الوقوف على كنهه وفلسفته ، ولا متكلما إلا واجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومحاولته ، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على صفوته ولا متعبداً إلا وأترصد مايرجع اليه حاصل عبادته، ولا زنديقا إلا وأتحبس وراءه للتنبيه إلى أسباب جرائه فى تعطيله وزندقته . .

ولد بطوس ، وهاجر إلى خراسان فى مطلع شبابه حيث اتصل بالعلماء وفى الطريق وقع له حادث ظل بعيد الأثر فى حياته ما عاش

قطع عليه العيارون طريقه وأخذوا جميع ما معه ومضوا فتعقبهم . وكان لا يطمع فى أن يردوا اليه شيئا سوى تعليقته .

قالوا له : ماهى تعليقتك فقال : كانت فى تلك المخلاه ، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علومها .

قالوا : لو أخذناها منك تجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ! ثم أمر واحدهم فسلم المخلاه إلى الغزالى ، وكان لهذا أثره فى نفسه فقد أقبل على حفظ ما حوته التعليقة ثلاث سنين ، وصار بحيث لو قطع عليه الطريق لم يتجرد من علمه .

يصف الإمام المراغى ، الغزالى بقوله : إذا ذكرت أسماء العلماء اتجه الفكر إلى ما امتازوا به من فروع العلم وشعب المعرفة ، فاذا ذكر ابن سينا أو الفارابى خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الاسلام .

وإذا ذكر ابن العربى خطر بالبال رجل صوفى له فى التصوف آراء لها خطرها — وإذا ذكر البخارى ومسلم وأحمد ، خطر بالبال رجال لهم أقدارهم فى الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال، أما إذا ذكر الغزالى فقد تشعبت النواحى ولم يخطر بالبال رجل واحد ، بل خطر بالبال رجال متعددون ! لكل واحد قدرته وقيمته، يخطر بالبال الغزالى الأصولى الحاذق الماهر والغزالى الفقيه الحر ، والغزالى المتكلم أمام السنة وحامى حماها، والغزالى الاجتماعى الخبير بأحوال العلم وخفيات الضمائر ومكنونات القلوب ، والغزالى الفيلسوف الذى ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف ، والغزالى المربى ، والغزالى الصوفى الزاهد . وإن شئت فقل إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره ، ورجل متعطش الى معرفة كل شىء ، يهم الى جميع فروع المعرفه .

ابن تيمية

ابن تيمية

ما رأيت « عالماً » حارب فى كل ميدان ، وتلقى الضربات من كل معسكر ، وجميع أسباب السيطرة والتفوق فى الفقه والكلام والتفسير كما وقع ذلك « لإبن تيميه » وهو تلميذ « أحمد بن حنبل » بحق فى الصبر على المحنة ، والاصرار على الرأى مهما كلفه ذلك من ثمن .

فقد اختلف « ابن تيميه » من رجال عصره جميعاً ، الفقهاء والفلاسفة والصوفية وحاربهم جميعا . ورموه عن قوس واحدة بالزندقة والمروق ، وصمد « ابن تيمية » ولم يتزعزع ولم يرهبه السجن ولم يفت من غرمه ، كان يدخل إليه ليخرج أشد صلابة وقوة ولا يلبث أن يعاود حملته من جديد ودعوته من جديد .

وفى خلال أربعة عشر عاما ، من سنة ٦٩٨ إلى سنة ٧١٢ ، هز « ابن تيميه » ميادين العلم فى مصر والشام . ووقف للنصيرية والباطنية والروافض بالمرصاد .

* * *

ولد بعد سقوط بغداد، فكأنما مولده نذيراً بهذه الحياة المليئة بالكفاح والصراع . فقد عاش فى ذلك الجو الذى أخذ التتار فيه يحطمون المقدرات الإسلامية بعد أن أطفأوا منار الخلافة فى بغداد . فأحسن هو المعنى البعيد الذى توحى به هذه الأحداث : ذلك هو ضعف المسلمين عن فهم دينهم وعجزهم عن التمسك به ، وتصدع جبهتهم الموحدة .

هذه الفترة العصبية ، أخرجت مولوداً عصبيا . فكان « ابن تيميه » حاداً قوى المعارضة ، غاية فى الجرأة .

دعا « ابن تيميه » إلى العودة بالإسلام لبساطته الأولى . بعد أن هاله ذلك التمزق فى الجبهة الإسلامية .

زوايا الصوفية ورباطاتهم وخوانقهم منتشرة فى كل مكان ، وأرائهم المشوهة المضطربة تبلبل الأفكار . وقد أخرجت الإسلام من بساطته إلى تعقيدات الحلول ووحدة الوجود .

وفرق الرفاعية فى دمشق وحلب ، والجيلانية فى العراق والشاذلية فى مصر كلها تسيطر على الراى العام وعلى الأمراء .

وكانت هذه الفرق تتصارع فيما بينها . ثم تتصارع مع الفقهاء . والفقهاء يتصارعون فيما بينهم . لصراع بين الحنابلة والأشاعرة ، وبين الفقهاء والمتكلمين . وبين المتكلمين والصوفية .

ووقف « ابن تيميه » بين هذه الفرق جميعا ليدعو إلى السنة الصحيحة ولم يدخل الميدان إلا وقد أحاط بالثقافات المتعددة فى مختلف هذه الميادين وألم بفنون الحديث ، وحفظ المتون . وعرف الرجال وجرحهم وتعديلهم وأعانه على ذلك حافظة واعية ، وذاكرة قوية ، وذكاء مفرط ، صدق فى وصفه « ابن دقيق العيد » حيث قال « رأيت رجلا جمع العلوم كلها بين عينيه . يأخذ منها ما يريد ويدع ما يريد » .

وكان ذا عقلية مرتبة يورد فى جلسة واحدة أو خطبة واحدة العديد من الأسايرة والأحاديث والحكم التى ينتظمها موضوع واحد .

وقد وصف « ابن تيمية » بأنه كان مهيبا ، أبيض اللون . اسود شعر الرأس واللحية ، ربعة فى الرجال ، بعيد ما بين المنكبين . جهورى الصوت فصيحا . واسع العينين كأنهما لسانان ناطقان .

ومضى « ابن تيمية » يناهض البدعة فى العقائد والأحكام والعبادات .

ويكافح مبادىء الحلولية فى التصوف ، واستنكر تقديس الموتى والأولياء وأنكر على المعتدلة مسائل الصفات ، وأنكر على الفقهاء غلق باب الإجتهاد والوقوف عند قيود المذاهب الأربعة ولا يتخطونها ، وأنكر على الفلاسفة أغرابهم ومغالطتهم وبعدهم عن بساطة الاسلام .

ولم يقف عند هذا ، بل اتجه إلى الناحية الايجابية ، فخرج على مذهب الاسقرى فى الأصول ، ومذاهب الأئمة الأربعة فى الفروع .

وحارب خرافات الأحمدية بدخول النار وغيرها ، وأفتى فى الطلاق ؛ بأن الطلقات الثلاث من غير تخلل رجعة تقع طلقة واحدة .

وبهذا فتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، ويقول إن نصوص الشريعة الاسلامية وافية بحاجات الناس . ويقول قول الامام أحمد : لا تقلدنى ولا تقلد مالكا ولا الشافعى ، وتعلم كما تعلمنا . وبدأ حملاته على الصوفية ، بأن وجه إليهم كتبا يطلب إليهم أن يعدلوا عن مسايرة عقائد الحلول والاتحاد ، مبينا لهم خطرها على الاسلام ، وأنها بدعة لم تأت فى كتاب .

وقد أرسل الصوفية هذه الكتب إلى شيخهم نصر المنبجى الذى كان محببا الى أرباب الدولة فى القاهرة ، فاستعانوا بالولاه ان يتقدم الشيخ الى القاهرة وأدخلوا فى روع الأمير ركن الدين الجاشنكر أن ابن تيمية خطر على الدولة . وقالوا له أنه لو أرخى له العنان لأخرج المماليك من الحكم كما فعل ابن تومرت فى المغرب. فعقدت له مجالس المناظرة فى دمشق ناظره فيها صفى الدين الهندى والزملكانى وكانت الغلبة لابن تيميه .

ثم استدعى الى مصر وأثاروا عليه حملة واسعة قادها العلماء الذين جمعت بينهم الأهواء .

وقد حكم عليه بأن يلقى فى الجب معلقا بحبل ، ويبقى فيه عام ونصف عام

ثم خرج منه وما ازداد إلا إصراراً على رأيه وثباتا على عقيدته، ثم حكم عليه بالسجن مرة أخرى بحبس القضاة، ثم اعتقل فى برج الاسكندرية ثمانية شهور .

وعاد إلى دمشق بعد غيبة سبع سنين عنها، وسرعان ما دبرت له المؤامرات وانتهت فرصة افتائه بما لا يعجب السلطان فحكم عليه بالسجن فى قلعة دمشق خمسة أشهر .

* * *

وكان طبيعيا أن يلقى ابن «تيمية» هذه الحملات وأن يظل موضع الحقد من السلاطين والحكومات والعلماء . ولكن ابن «تيميه» كان صلب العود . لقد واصل حملاته قوية جبارة ، يصدر فيها عن عمق اطلاع وسعة فهم وإصاله فى قيادة المساجلات .

وفى كل مرة من المرات التى عقدت له مجالس المحاكمة وكانت خمس مرات كان يخرج منتصراً . وعوقب بالسجن مرات فكان يدأب فيه على تعليم العامة وتثقيفهم فى أصول الدين . ويعكف على كتاباته ومطالعاته حتى أنه وضع تفسيرة للقرآن فى ثلاثة أجزاء وهو فى قبو مظلم رطب تحت الأرض .

وسجن مرة فى برج قضى فيه شهر رمضان فلما جاءت ليلة العيد أنزل الى الجب وكان يعاود عرض آرائه وإعلانها للناس مرة فرة ، حتى يغرسها فى عقولهم ، فاذا لقى الاضطهاد والعنف انطوى ، حتى تسكن الفتنة ثم يعاود الكرة فيذيع آرائه مرة أخرى ، فتقوم عليه الثورة .

ولا شك كان للاحقاد التى يغمرها العلماء نحو ابن «تيمية» لبروز عبقريته وشهرته وعلمه ، أبعد الأثر فى تأجج نار الفتنة والنقمة عليه .

ولم تكن آرائه تنقل على حقيقتها ، بل كانت تحرف وتؤول وتفسر وتدس عليه أقوال ليست له .

وفى المرحلة الأخيرة من حياته أمضى فى محنه أكثر من ثلاث سنوات وجرد من أوراقة وكتبه وظل فى محبسه حتى توفى فى ٢٧ سبتمبر ١٣٢٨ (٢٠ ذى القعدة ٧٢٨)

* * *

ولم تكن حياة ابن « تيمية » صفواً ، بل كانت حافلة بالمتاعب ، ففى الفترات التى كان يخرج فيها من سجنه ، كانت العامة تلاحقه بالأذى ، بل ان بعض العلماء تربصوا به مع بعض الغوغاء ، وانتهزوا فرصة مروره بأحد الأمكنة الخالية من العمران وضربوه ضرباً مبرحا وظل يحتمل ذلك صابراً محتسبا . وظلت أبواب بيبرس مقفلة فى وجهه وكان سلاطين المماليك يخشون نفوذه ، ويعملون على تحطيمه .

وبالرغم من هذا الاضطهاد فإنه لم ينس واجبه عندما هاجم التتار حدود الشام ، فقد ركب فرسه ومضى يحث الناس على الجهاد وشهد موقعة (شقحب) وكان عاملا هاما من عوامل انتصار المسلمين على التتار فيها .

ومضى ابن « تيمية » يحث الناس على الجهاد ، يحرضهم ويدعوهم الى الشهادة فى سبيل الوطن والحرية .

وقد عرف بالشجاعة البالغة وثبات الجنان، والبراعة فى ركوب الخيل والطعن ، وكان لسانه اللبق ، يدفع عن النفوس الهلع ، وينشر الشجاعة والحمية فى صفوف المحاربين .

ووقف فى هذه المعارك موقف الموت فكان قدوة للناس الذين كانوا يتدافعون تحت اللواء يقتلون ويقتلون .

ولم يقف أمر ابن « تيمية » عند هذا الحد ، بل أنه ذهب إلى الأمراء والسلاطين فى مصر يشجعهم على الجهاد فى سبيل الله ويحثهم على ارسال الكتائب لتقاوم الغارة .

وعاد ابن «تيميه» من حرب الى حرب، عاد ليحارب القرامطة والباطنية الذين كانوا عونا لكل عدو ، وثغرة لمن أراد أن ينفذ إلى أرض المسلمين

كان ابن « تيميه » فسيحا وحده فى الخلق ، من ذلك الصنف الذى لايؤمن باللباقة ولا السياسة ولا المجاملة فى سبيل الحق الذى يعتقده ، بل يقول كل ماعنده دون أن يبالى ، إن أغضب الناس أو الحكام ، أو العلماء وقد أزعج خصومه وبدد أمنهم، فكانوا يبحثون له عن لفظ أو كلمة يتخذونها ذريعة لاتهامه .

وقد عرف بأعراضه عن طلب الرياسات، ولم يقبل أن يكون ظلا لأمير أوسلطان بل أنه ظل طوال حياته يرفض أعطياتهم .

ولما جاءته القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فى أواخر عمره أنفقها جميعها دون أن يبقى منها شيئا .

وقد ألف فى سجنه صفوة كتبه ، وفتاواه وأحكامه فى تفسير القرآن وشهدت سجونه بحارة الديلم بالقاهرة، وفى البرج المطبق فى الاسكندرية وفى سجن القلعة فى دمشق هذه الصفحات الخالدة من العلم .

ولاشك أن ابن «تيميه» كان رجلا انسانا ممتازاً ، كان عاملا قوى الحجة وفارسا يصول كأعظم المجاهدين ، لا يؤمن بأساليب السياسة فى العلم ولا يتوانى عن قول الحق دون مواربه .

فلما مات شيعه الناس رمزاً ، وحضر دفنه مائة ألف رجل وخمسة عشر ألف امرأة - فيما ترويه الآثار - وكسر العامة أعواد نعشه . ودفن فى مقابر الصوفية .

صلاح الدين

ليس جهاد صلاح الدين فى الشام لمقاومة الفرنجة الأوجهة واحدة من شخصية ضخمة متعددة الجوانب . وليس صلاح الدين هو الفارس المغوار والمحارب المجاهد فحسب ، وإنما هو أيضا السياسى ذو الدهاء واليقظة ، والقدرة على مداواة الأمور ومواجهة الأحداث ، ومقاومة الأخطار فى ميدان الرأى ، وحبك الحيلة وتدبير المناورة ، وهذا مالم يتوفر للكثيرين من أعلام الاسلام الذين برزوا بروزاً ضخماً فى الحرب . كخالد أو فى السياسة كالمنصور .

وهو من الزعماء الذين يجيئون وقت الحاجة ، ووفق الحاجة ، وهو من رجال الانقلاب .. إذ لا يذكر تاريخ عودة مصر من حكم الشيعة إلى السنة .. إلا ذكر « صلاح الدين » على أنه الرجل الذى كان الفيصل بين العهدين ..

جاء إلى مصر فى الركب ، غير أن القدر كان يخبىء له الدور الأول .. فهو ... الظروف والأحداث التى وطدت له بعد ضربات سريعة ، مركزاً ضخماً فى القاهرة لايبارى ، وكان موت عمه أسد الدين وسيده نور الدين وموت الخليفة الفاطمى على فترات متقاربة .. من العوامل الهامة الرئيسية التى أولته مكان الصدارة فى فترة قريبة .

* * *

كان أول ما اهتم له « صلاح الدين » هو نقل مصر من الفاطمية إلى مصر السنة . والدعوة للخليفة العباسى بدلا من الخليفة الفاطمى ، وكان

ذلك ولا شك من الأمور الخطيرة التى تحتاج إلى دارسة عميقة لنفسية الشعب ، وإعداد الخطة اللبقة لمواجهة الموقف .

إنما أراد « صلاح الدين » أن يقوم بأضخم إنقلاب فى تاريخ مصر دون أن يريق قطرة دم .

وقد وضع « صلاح الدين » هذه الخطة على مراحل .. فأبطل من الآذان ما أضافه الفاطميون إليه تميزاً لدعوتهم ، وهى عبارة (حى على خير العمل) فلم ينكر الناس ، إنما يحنون للعودة إلى ماضيهم الأول ، وهنا انتقل الانقلاب إلى مرحلة أخرى .

كلف الامام فى المسجد الجامع الكبير أن يخطب الجمعة على أن يهمل فى الخطبة الثانية ذكر العاضد الفاطمى ، ثم يرى أثر ذلك ووقعه فى النفوس .. على أن يكون « صلاح الدين » متغيبا ، فإذا ثاروا تدخل (نجم الدين — والد صلاح الدين) واعتذر « صلاح الدين » بتغيبه ، وأعلن سخطه على الامام ، فإذا نجحت الخطة أمكن أن يضاف اسم الخليفة العباسى بدل الخليفة العلوى ..

وأختير لهذا إماما جريئا هو الشيخ الجنوشانى .

وكان لهذا الحادث أثره الطيب فى نفوس الناس ، فقد استقبل بالصمت ولم تبدأ حركة تدل على أن هناك ثورة ما .

غير أن الظروف نفسها كانت فى صف « صلاح الدين » فقد مات العاضد قبل الجمعة التالية ، وتأثر لذلك « صلاح الدين » وود لو كان له ألا يرفع اسمه من الخطبة .

ولكن الأمر لم يمضى بهذه السهولة ، فقد جاءت المؤامرة فى عقب

الانقلاب ، إذ تجمعت عناصر الشر لنقتال « صلاح الدين » وأمكن احباط المؤامرة التى قادها عماره اليمنى .

وكانت هذه المؤامرة ترمى إلى التواطن مع أمراء « صلاح الدين » على التجسس عليه واغتياله ، وليعين خليفة جديد ، واستدعاء الفرنجة من صقليه والساحل والاستعانة كذلك بالقرامطة الاسماعيلية .

وتمكين أنصار « صلاح الدين » من دس بعض الموالين لهم للعمل مع المتآمرين حتى وصلت إلى المرحلة الحاسمة ، وعند ذلك وضع المسئولون يدهم عليها .

وتلت هذه المؤامرة مؤامرة (مؤتمن الخلافة — العبد الخصى) الذى كاتب الأفرنج واتفق معهم ، وقد وقعت المكاتبات فى يد «صلاح الدين» فى الوقت المناسب وأمكن سحق المتآمرين .

* * *

واستطاع « صلاح الدين » أن يدعم سلطانه فى مصر برجال ثلاثة : القاضى الفاضل والمهندس بهاء الدين قرامدش والفقيه عيسى الهطارى .

وما أن انتهى « صلاح الدين » من القضاء على خطر الفاطميين حتى واجه خطر الفرنجة ، ومضى يجاهد فى سبيل الله صدر حياته حتى أستشهد وكانت غايته استرجاع بيت المدس من أيدى الفرنجة ، وهو ان كان قضى قبل أن يبلغ غايته .. فقد مهد الطريق لمن جاء بعده ، وأذل لهم السبل لتحقيق هذه الغاية التى أتمها « الظاهر بيبرس » .

ولا شك أن معظم ما وصل إليه « صلاح الدين » من ظفر ونصر إنما يرجع إلى فضل « نور الدين » الذى مهد له الطريق ورسم له الخطة ، وعبد له الأرض .

« صلاح الدين » تلميذ صادق القدوة لنور الدين، فقد مضى فى طريقه للقضاء على الصليبيين ، وأفلح إلى حد كبير فى تحطيم قوتهم .

ولا شك أن طبيعة «صلاح الدين» النفسية كانت عاملا قوياً من عوامل الظفر الذى كسبه فى معارك الحرب ومعارك الانقلاب . فقد تجمعت حوله الخصومات والعداوات ، وحيكت له المؤامرات ، حاكها خصومه فى مصر من أذيال العهد الفاطمى ، وحاكها خصومه من أمراء الشام ، وحاكها الصليبيون حين اتفقوا مع الباطنية ، وظل « صلاح الدين » صامداً للأحداث يؤمن بطريقه ويمضى على أسلوبه فى الوفاء بوعده . ورفض فى كل مرة أن يهاجم الفرنجة وهو على علم بما يريدون من مؤامرات ، وكان يقول « إنى لأستحى من الله أن يرانى ناقضاً للعهد . وإنى لأستحى من نفسى أن أكون كاذب الوعد وما النصر إلا من عند الله » .

* * *

وأمضى « صلاح الدين » حياته مجاهداً ، فما أن استقر الأمر فى مصر حتى خرج إلى الشام ليرى أمرها بعد وفاة « نور الدين » وليكون قريباً من موطن الأحداث . ولكنه لم يعد إلى مصر مرة أخرى فقد شغله الجهاد وكان فيه مثلا للنفس النبيلة الكريمة .

لقد كان المسلمون فى حاجة الى شخصية تجمعهم ، وقد وجدوها فى صلاح الدين وسرعان ما اتسعت مملكته فامتدت من برقه إلى اليمن الى النوبة الى ديار بكر والجزيرة وأرمينية وحتى هنا تخليص بيت المقدس وكان أمد المهادنة بينه وبين الفرنجة قد انتهى . وكانت ضربته فى حطين من أقوى الضربات التى جاءت فى وقتها ، والتى لم تكن مبادئة أو غدراً من « صلاح الدين » وإنما تحوطا من مؤامرة ضخمة عقد الفرنج خيوطها ، وكانت ضربته فى حطين من اقوى الضربات .

عندما فتح حلب ، وفرح المسلمون لهذا الفتح ، بلغه نبأ وفاة أخيه ، فحزن لذلك أشد الحزن ، ولكنه حرص على ألا يبلغ ذلك للناس حتى لا يفسد عليهم فرحهم بالفتح ، وانتحى ناحية وأخذ يبكى .

وعامل الفرنجة خير معاملة .. عندما وقع معهم شروط الرحيل عند القدس . على أن يدفع كل فرد عشرة دنانير .. فقد ترك لهم المدينة حتى لا يؤذى شعورهم ، ويعفى سبعة آلاف من العجزة من الضريبة ، ويصف أحد المورخين الأوربين هذا الموقف « ان السلطان قضى يوما كاملا من مطلع الشمس إلى مغربها ، وعلى بابه من ينادى : هل من فقير فنأويه ، هل من عاجز فنعفيه من فدية يؤوده دفعها ويعجزه الحصول عليها » ، ورفض « صلاح الدين » أن يصادر أموال البطريق التى خرج بها قائلا : إنه ليس لنا من حق فى ماله إلا الدنانير العشرة، وغيرى من يغنم المال عن طريق الغدر .

* * *

وكان « صلاح الدين » غاية فى الايمان بالله ، يطيل الركوع والسجود ويتوجه إلى الله فى الملمات داعيا باكيا . يعتمد على سلاح دعاء السحر فى محاربة خصومه ، كما يقف منهم موقف الخلق . فلا يجهز على جريحهم ولا يقتل من جاءه مستجيراً . وكم لقى من لؤم الفرنج وخستهم وغدرهم ، ولكنه لم يفكر مرة فى أن يتخذ نفس أسلوبهم .

وكان يقتدى رسول الله فى أساليبه ، فقد نقل الحجارة بيده وحمل التراب على كتفه بعد فتح القدس .

وهو إلى ذلك أديب مرهف الحس يحب الشعر ، يكره الترف وينفر منه ، حرص على تطهير العقيدة الاسلامية من الأوهام والبدع ، وقد

أتيح له أن يصل فى ذلك إلى كل ما يريد ، كما حرص على تطهير الأرض الاسلامية من الفرنجة ، ووصل فى ذلك إلى بعض ما يريد .

ويكفى أنه ملأ قلوب الناس حماسا وإيمانا بالاسلام ، ودفعهم إلى الجهاد ، وفتح أمامهم الباب الى استبعاد بلادهم من الخطر الصليبى، وظلت النار مؤججه فى الصدور حتى تحقق ذلك على يد بيبرس .

أسر « صلاح الدين » جاى دى لوزنيان ملك بيت المقدس وبليان صاحب الرملة ورينولد أمير الكرك . فلم يهدر إلا دم الأخير منهم وفاء بين كان قد أقسمها أن يضرب عنقه بيده جزاء تطاوله على مقام النبى .

وعند ما مرض ملكا الانجليز والفرنسيين فى حصار عكا أرسل إليهم البلح والفاكهة والطبيب وأهدى إلى ريتشارد جوادين عند ما رآه يقود جموعه راجلا .

وأذن لبيتان وجاى دى لوزنيان بأن يسافرا إلى بلادهم فخنثا فى يمينهما وجنحا إلى الغدر وقادا الحملة الصليبية فى بيت المقدس وعكا، وكان هذا مما اخذه المورخون على « صلاح الدين » وقالوا أن عاطفته هذه قد أخرت إخراج الصليبيين من القدس مائة عام .

جمال الدين الأفغانى

« خيل إلى من حرية فكره ونبالة شيمه وصراحته، وأنا أتحدث إليه أننى أرى أحد معارفى القدماء وجها لوجه . وأنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو واحداً من أولئك الأحرار العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الاسار » . «وصدق رينان فى وصف جمال الدين الأفغانى» .

فقد كان « جمال الدين » حكيم الشرق ، وأب هذه المدرسة التى جاءت بعده وأستاذ الكواكبى ونديم وشكيب أرسلان والمغربى ورشيد رضا . والرجل الذى أوقد الجذوة فى الشرق كله . فليس من ثورة من الثورات التى اندلعت فى العهد الأخير إلا وتتصل من قريب أو بعيد بهذا الثائر الأكبر .

* * *

أوقد « جمال الدين » الشرارة فى الشرق كله . فى فارس . فى تركيا . فى الهند ترك « جمال » أثره . أما فى مصر فقد استقر ثمان سنوات فى أواخر القرن السابع عشر ١٨٧١ — ١٨٧٩ .

كان عبد الحميد الطاغية فى الاستانة ، وكان اسماعيل المبذر فى مصر وفى بيئة الأزهر ، وقهوة متاتيا ، خلق جواً من التمرد على هذه الحياة المضطربة التى كانت تعيشها إذ ذاك .

وأثر « جمال » فى الصحافة والأدب ، كما أثر فى دراسات الأزهر ، ولم يكن يكتب كثيراً ولكنه كان يتحدث . يتحدث عن الحكام الظلمة وعن الاستبداد وعن التسلط ، كان يتحدث فى أسلوب يملأ النفوس حماسة

وإيمانا . ويفتح الآفاق أمام حياة جديدة . تنتظم الشرق كله فيها الحرية والضياء .

كان يمزج التصوف بالفلسفة بالفقه . ويصل الدين بالدنيا ، ويفتح النوافذ أمام حرية الفكر .

فإذا مثل له أن باب الاجتهاد مسدود قال : « من الذى أغلقه وبأى نص سد أو أى إمام قال لا يصح لمن بعدى أن يجتهد فى الدين ويهتدى بهدى القرآن وصحيح الأحاديث والاستنتاج بالقياس على ما يطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمن » .

* * *

أبغض « جمال الدين » بريطانيا أشد البغض ، وشهر بها فى عنف . ويقول أن الروح الصليبية لم تلبث كامنة فى الغرب كما كانت فى قلب بطرس الناسك . ولم يزل التعصب كامنا فى عناصرها . وهى تحاول بكل الوسائل للقضاء على كل حركة يحاولها المسلمون للإصلاح والنهضة . من أجل هذا يجب على العالم الاسلامى أن يتحد لدفع الهجوم عليه ليستطيع الذود عن كيانه . ولا سبيل إلى ذلك إلا باقتناء أسباب تقدم الغرب . والوقوف على عوامل تفوقه ومقدرته (١) .

وعمل « جمال » حياته فى كل مكان ذهب فيه إلى تحرير الفكر توطئة لانشاء جامعة تنتظم الحكومات الاسلامية . والربط بين السنة الشيعة وإزالة عوامل الفرقة والخلاف بينهما .

« لقد جمعت ما تفرق من الفكر ، ولمت شعث التصور ونظرت إلى

---

(١) لوثروب ستودارد .

الشرق وأهله ، فاستوقفتنى الأفغان . وهى أول أرض مس جسمى ترابها ، ثم الهند وفيها تثقف عقلى ، فايران بحكم الجوار والروابط . لجزيرة العرب من حجاز هى مهبط الوحى ، ومن يمين وتبايعتها ونجد والعراق وبغداد وهارونها ومأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها والأندلس وحمرائها . وهكذا كل صقع ودور من دور الاسلام . وما آل إليه أمرهم . فالشرق الشرق ، لخصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه وتحرى دوائه ، فوجدت أعضل أدوائه داء انقسام أهله . وتشتت أرائهم واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف . فعملت على توحيد كلمتهم وتنبيههم للخطر الغربى المحدق بهم .

* * *

سبق « جمال الدين » عصره ، فى أفكاره وحياته ، فلقى ما لقى ابن تيمية والهدوردى ، اتهم بالزندقة والالحاد . وواجه حقد العلماء الرجعيين وفى كل مكان ذهب لقى المتاعب والأحقاد .

اختلف أول أمره مع أمير الأفغان الذى شايع الانجليز . فرحل عنها إلى الاستانة حيث عين عضوا فى مجلس المعارف . فلما ألقى خطبته المعروفة فى حفلة دار الفنون أنكر المشايخ عليه بعض الآراء .

واتهم بأنه قال قولا فى الرسالة والنبوة يخالف رأى الاسلام .

وأحس « جمال الدين » أن الجو قد فسد عليه ، وأنه لا بقاء له هناك . فخرج من الاستانة ويمم قاصداً مصر .

وكأنما أراد جمال أن يخلق الرأى العام فى مصر ، وان يعد العقول والقلوب لتواجه الحياة ، ولتثور على الظلم ، ولتقف فى وجه الاستبداد استبداد اسماعيل فى مصر واستبداد الشاه فى إيران هـذا المستمد من استبداد عبد الحميد خليفة المسلمين .

اراد جمال أن يكسب توفيق الى صفه ، ولكنه ما كاد أن يتولى الحكم حتى كان الأمر بإخراج جمال الدين من مصر هو أول قرار وقعه .

فى ٢٦ أغسطس ١٨٧٩ قبض عليه وهو فى طريقه الى داره وكان معه خادمه أبو تراب ، ثم اعتقله السلطان فى أحد أقسام البوليس حتى الصباح ورفضت أن تسمح له بإحضار ثيابه من المنزل ، وفى اليوم التالى وضع فى عربة مقفلة تحت حراسة شديدة مسلحة ، ونقل الى السويس سراً حيث ركب السفينة إلى منفاه فى الهند .

واتهمته الحكومة المصرية فى بلاغ رسمى بأنه يبث الفساد فى الأرض وذكرت عنه أنه رئيس جمعية سرية من الشباب الطائشين الذين يعملون على فساد الدين والدنيا .

* * *

واستقر به المقام فى حيدر أباد . فلما وقعت الثورة العرابية فى مصر (سنة ١٨٨٢) نقلته حكومة الهند من حيدر اباد إلى كلكتا ، وأقام هناك مخفوراً مراقبا . ثم ابيح له الذهاب إلى حيث يشاء ، فسافر إلى لندن ، وعاد الى باريس حيث وافاه هناك «محمد عبده» وأصدر جريدة العروة الوثقى التى أصدرت ١٨ عدداً فى ثمانية أشهر .

وسافر جمال الى فارس بدعوة من الشاه ناصر الدين ، ولكنه لم يلبث أن يقيم هناك حتى تنكر له الشاه وأحس خطره فترك السيد بلاده ، وسافر الى سان بطربيرج عاصمة روسيا حيث أقام ثلاث سنوات .

وعاد الى باريس ، ولقى الشاه مرة أخرى وعرض عليه العودة الى فارس فعاد . ولم يقم طويلا هذه المرة أيضا ، فإنه ما كاد يعمل فى سبيل تنظيم الحكم النيابى فى البلاد ، حتى دس للسلطان مدى الخطر الذى ينتظره من هذا الاصلاح .

وفسد الجو بين جمال والشاه ، فخرج الى مقام « عبد العظيم » على نحو عشرين كيلو من طهران. حيث اتخذه الشيخ مكانا لبث دعوته وقد اجتمع له قوم كثير من العلماء والوزراء . وتحرج مركز الشاه ، ولكن خمسمائة فارس ، يهجمون عليه وهو مريض ويسحبوه على الثلج إلى دار الحكومة وهو مريض ، ثم يضعوا فيه السلاسل حيث يذهبون به الى البصرة .

ومضى يشهر بالشاه ، ويحرض عليه ويهيج فى كل مكان ، وسافر الى لندن وباريس .

* * *

ودعا السلطان عبد الحميد إلى زيارة تركيا ووعده بتنفيذ آرائه فى الإصلاح وقد حس أن ينضم إلى تركيا الفتاة ، ولكنه ما يكاد يصل إلى القسطنطين حتى أحس بأنه دخل سجنا أسواره من الذهب .

وقد عاش فعلا حياة رضية ولكنه أحس منذ اللحظة الأولى أن خططه جميعا قد وأدت . وأن أماله فى الإصلاح قد تبخرت وكان جمال يطمع فى أن يعمل مع عبد الحميد على إنشاء الجامعة الاسلامية . ولم ستطع الخليفة أن يغرية بالمناصب ، ووقف له أبو الهدى الصيادى موقف الخصومة وإحاطه بالمؤامرات والدسائس . فافسد ما بينه وبين عبد الحميد .

وأمضى أربعة سنوات وهو يقاسى ذل الأسر فى ثوب الحرية حتى مات مسموما ، بعد أن قطع لسانه وسرى السرطان إلى حلقة .

حياة هذه مراحلها التى تنتهى دائما بالنفى والابعاد تعطيك صورة جمال الدين الافغانى : أبو الثورة فى الشرق الحديث . هذه الشخصية التى استطاعت أن تحمل الحرية وتمض بها إلى كل مكان دون أن تخشى شيئا

أو أحداً . كان يقطع بياض نهاره فى داره ، حتى إذا جن الظلام خرج متوكئا على عصاه إلى قهوة متاتيا ، وجلس فى صدر مثة تتألف من مريديه وتلاميذه . يتحدث جمال الدين وهم يستمعون إليه حتى يمضى موهنا من الليل .

* * *

وعاش جمال الدين دون أن يتزوج . وأنى له ذلك وقد كتبت عليه الغربة الدائمة والتنقل . وقد كان عبد الحميد قد عرض عليه أن يزوجه فرفض وقال : عجزى عن القيام بالزواج . دفعنى أن ألقى عدم العدل ببقائى عزبا .

وكان يقول : إن الطبيعة أحكم منا ، فهى تدبر نفسها ، من ترك شيئا عاش بدونه وعندما أخرج من مصر ذهب محبوه إلى السويس يحملون له قدراً من المال فقال : أنتم إلى المال أحوج ، إن الليث لا يعدم فريسته إينما ذهب وعند ما نزل فى أحد الموانى قيل له أين صناديقك أيها السيد ، قال ليس معى غير صناديق الكتب وصناديق الثياب فلما سئل عنها قال صناديق الكتب هنا وأشار إلى صدره ، وصناديق الثياب هنا وأشار إلى جبته .

وعلق على ذلك بقوله : كنت فى أول عهدى استصحب جبة ثانية ولكن لما توالى النفى صرت استثقل الجبة الثانية فأترك التى على إلى أن تخلق فاستبدلها بغيرها .

وكان يكتفى بأكلة واحدة فى اليوم كله ، مع افراط فى الشاى والتدخين .

وعرف جمال الدين بسلامة القلب ، كريم يبذل ما فى يده ، لا يبالى ما تأتى به صنوف الدهر ، ووصف بأنه يلقى الحكمة لمن يريدها .

وقد بلغ غاية القوة فى مواقعه مع الملوك والسلاطين . قال لعبد الحميد عند ما طلب إليه أن يترك مهاجمة الشاه « إنى لاجلك قد عفوت عنه »

ويلعب بحبات مسبحته فى حضرته فاذا سأله رئيس الملبين بعد خروجه عن ذلك قال : « أن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة ، أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بمسبحته كما يشاء .

ووصف جمال الدين بأنه شجاع مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه إلا أنه حديد المزاج ، وكثيراً ما هدمت الحدة فيه ما رفعته الفطنة .